سوزانا تامارو

اتبعي قلبك

ترجمة طلعت الشايب

اتبعي قلبك

تأليف
سوزانا تامارو

ترجمة
طلعت الشايب

هنـــداوي

اتبعي قلبك

Follow your Heart

سوزانا تامارو

Susanna Tamaro

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٨ ٣٣٦٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإيطالية عام ١٩٩٦.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٩٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ طلعت الشايب.

المحتويات

مقدمة الأعمال الكاملة للكاتب والمترجم طلعت الشايب	٧
أوبيتشينا، ١٦ نوفمبر ١٩٩٢م	١١
١٨ نوفمبر	١٩
٢٠ نوفمبر	٢٥
٢١ نوفمبر	٣٥
٢٢ نوفمبر	٤٣
٢٩ نوفمبر	٥١
٣٠ نوفمبر	٥٩
١ ديسمبر	٦٧
٤ ديسمبر	٧٣
١٠ ديسمبر	٨٥
١٢ ديسمبر	٩٩
١٦ ديسمبر	١٠٥
٢٠ ديسمبر	١١٣
٢١ ديسمبر	١١٩
٢٢ ديسمبر	١٢١

مقدمة الأعمال الكاملة للكاتب والمترجم
طلعت الشايب

حينما طلبَت مني دار النشر «هنداوي» كتابةَ مقدمةٍ لأعمال والدي الكاملة وإسهاماته في مجال الترجمة، قفزَت إلى ذهني مُباشَرةً صورتُه في جلسته الدَّءُوبة ساعاتٍ طويلة في غرفة مكتبه مُحاطًا بعشرات الكتب والمَراجع والقواميس.

كان أبي قارئًا نَهِمًا ومُتابِعًا دقيقًا لكل الإصدارات الحديثة لمعظم الكُتاب والمُفكرين والأُدباء العرب والأجانب، لكنَّ أمتعَ لحظاته على الإطلاق تلك التي يَقضيها في ترجمةِ عملٍ ونقله من لُغته الأم إلى اللغة العربية. ينشغل أيامًا للعثور على التعبير المناسب أو الكلمة الدقيقة أو المقابل اللغوي الصحيح الذي يَنقل روحَ النص وليس المعنى الحرفي؛ مهمةٌ لم تكن قَطُّ سهلة، خاصةً عند ترجمة الشعر أو الأدب اللذين كان مُولَعًا بهما في الأساس.

احترف أبي الترجمةَ من وحي احترافه القراءةَ والنقد في زمنٍ لم تكن فيه مصادرُ البحث عبر الإنترنت متوافرةً كما هي الآن؛ بكبسةِ زرٍّ تستطيع العثورَ على مصطلحاتٍ أو معلومات أو تفاصيل عن حدَثٍ تاريخي.

كان عليه البحث في المَراجع والكتب أيامًا للعثور على مُرادفٍ له مدلولٌ ثقافي أو معلومات عن حدثٍ تاريخي ورَدَ في كتابٍ يقوم بترجمته.

وتنتهي رحلةُ ترجمة الكتاب بشراء عشرات الكتب الأخرى التي استعان بها في أثناء الترجمة.

كان يصف ترجمةَ الشعر والأدب بالمُغامَرة المحفوفة بالمخاطر. المهمة هنا أشد صعوبةً لأنك لا تنقل أفكارًا أو معلومات، بل أحاسيس ومشاعر وأجواء وروح نص لأعمال مثل: «اتَّبِعي قلبك»، و«أصوات الضمير»، و«بقايا اليوم»، و«هوس العمق»، و«الخوف من المرايا»، و«فتاة عادية»، وغيرها.

عليك، بصفتك مُترجِمًا، مهمة الحفاظ على روح الكاتب الأصلي وموسيقى النص ليصل المعنى بدقةٍ إلى القارئ، وكأنه يقرأ العمل بلُغته الأصلية، وكأن العمل له كاتبان؛ الكاتب الأصلي والمُترجِم.

في أعوامٍ لاحقة اقترب أبي من التكنولوجيا أكثر، واستخدم الإنترنت التي اختصرَت عليه عمل أيام وشهور، لكنه لم يَتنازل قَطُّ عن استعمال أقلام الرصاص لنقل ما بذهنه على الورق. ترقد الأقلامُ مصفوفةً أمامه بعضها إلى جوارِ بعضٍ على المكتب مَبريَّة وجاهزة للكتابة، وكأنها سلاحه الأمين.

يكتب بسرعةٍ بخط جميل مُنمَّق على أكثر من مرحلة لم تكن إحداها قَطُّ الكتابة على الكمبيوتر. كان يُفضِّل المسوَّدات الورقية، وإدخال التعديلات بالأسهم أو الشطب على الكلمة وكتابة غيرها؛ لتظل أمامه مراحلُ التفكير في الكلمات واستبدالها بأخرى.

يقول لي: أُحب أن تظل أمامي الكلمات «تخايلني»، ربما أعود لها مرة أخرى. لا أُفضل الإلغاء التام أو المسح النهائي الذي توفره أجهزة الكمبيوتر. المسوَّدة بكل هوامشها هي عمليةُ ولادةِ النص المُترجَم.

أبي كان راهبًا في مِحراب الترجمة، شغوفًا برحلته مع كل كتاب، تلمع عيناه في نهاية يومِ عملٍ شاقٍّ بما اكتشفه في رحلته من أفكارٍ وثقافات يَتحدَّث عنها بحماسةِ وسعادةِ مَن يُعيد اكتشاف ذاته كلَّ مرة.

وتبقى الجملة الأجمل بالنسبة إليه عندما يَلتقيه قارئٌ ويُخبره أنه لم يشعر قَطُّ أنه أمامَ عملٍ مُترجَم لسلاسة الترجمة وانسيابية الكتابة.

هذه دعوة للغوص في مجموعةٍ من أهم ما قدَّمه مُفكرون ومُؤرخون وشُعراء ومجالات أخرى متنوعة تناسب كلَّ الأذواق، من بينها كُتبٌ غيَّرت مجرى التاريخ، مثل: «صدام الحضارات»، و«الحرب الباردة الثقافية»، و«فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي»، و«الاستشراق الأمريكي»، وغيرها من الأعمال الهامة.

رحلة عبْرَ ترجماتِ والدي، المُترجِم والكاتب «طلعت الشايب»، وأَعِدُكم بمتعةٍ تضاهي متعةَ قراءةِ العمل الأصلي بلُغته الأم.

منى الشايب

آه يا شيفا!
ما هي حقيقتك؟
ما هذا الكون المليء بالأعاجيب!
ما الذي ينبت البذرة؟
ما هي صرة عجلة الكون؟
ما تلك الحياة وراء الكون الذي يتخلل الأشكال؟
كيف نستطيع أن ندخل فيها بكاملنا ... وراء المكان،
والزمان والأسماء والمظاهر؟
خلصني من شكي!

(من نص مقدس لعبادة شيفا في كشمير)

أوبيتشينا، ١٦ نوفمبر ١٩٩٢م

منذ شهرين وأنتِ بعيدة، ومنذ شهرين لم يصلني منك شيء سوى بطاقة بريدية، تخبرني أنكِ ما زلت على قيد الحياة. هذا الصباح وقفتُ في الحديقة طويلًا، أنظر إلى شجرتك … شجرة الورد. رغم أننا في عز الخريف إلا أنها تقف، قرمزية شامخة، ووحيدة بين كل النباتات الذابلة والميتة، هل تتذكرين يوم أن غرسناها؟

كنتِ في العاشرة، وكنتِ قد انتهيت لتوك من قراءة «الأمير الصغير»، هديتي إليك لنجاحك في الامتحان، وكانت القصة قد خلبت لُبَّك. كانت شخصياتك المفضَّلة هي شجرة الورد والذئب، لم تحبي شجرة «البأوباب» ولا الثعبان ولا الطيار … ولا الرجال الجوف الطافين في كواكبهم الصغيرة.

ولذلك قلت ذات مرة، ونحن نتناول طعام الإفطار: «أريد شجرة ورد»، وعندما قلتُ لكِ «إن لدينا أشجار ورد كثيرة» قلت: «ولكنني أريد شجرة لي … تكون ملكي … أتعهدها وأرعاها فتكبر أمامي وتنمو»، وكنتِ — بالطبع — تريدين ذئبًا، بالإضافة إلى الوردة. وبخبثٍ طفولي عبَّرتِ عن الرغبة سهلة التلبية، وليس عن تلك المستحيلة، وحيث إنني وافقت على شجرة الورد، فكيف أرفض فكرة الذئب؟

بعد مناقشة الأمر طويلًا، وصلنا إلى حلٍّ وسط؛ كلب. في اليوم السابق لذهابنا لكي نشتريه، لم يغمض لك جفن. كل نصف ساعة تقريبًا، كنت تأتين، تدقين بابي قائلة إنك لا تستطيعين النوم. وفي الصباح قمتِ واغتسلت، وتناولت إفطارك، وارتديت ملابسك قبل السابعة، وجلستِ في مقعدي مرتدية المعطف … تنتظرينني.

في الثامنة والنصف كنا عند مَرْبَى الكلاب الذي كان ما زال مغلقًا.

نظرتِ من بين القضبان الخشبية، وسألتِني: وكيف سأعرف أن هذا كلبي؟ كنتِ قلقة. أكدتُ لكِ، وقلتُ لا تقلقي، وذكَّرتك كيف كان الأمير الصغير يروِّض الذئب.

تردَّدنا على المربى ثلاثة أيام متوالية، كان هناك أكثر من مائتي كلب، وكنت تريدين رؤيتها كلها. ووقفتِ أمام كل قفص، وكنت ساكنة غير مكترثة، والكلاب تلقي بنفسها على الشبكة السلك، تنبح وتتقافز في محاولة لتمزيق الشبكة بأظافرها. كانت السيدة المسئولة عن المربى معنا، وكانت تعتقد أنك طفلة صغيرة عادية، وحاولت أن تساعدكِ على اتخاذ قرار بأن تريك أجمل الكلاب.

قالت: ما رأيك في هذا المسترخي الأذنين، الحريري الشعر؟ ما رأيكِ في هذا «الكولي» الاسكتلندي؟ وكنتِ تتنهدين بشدة، وتهمهمين، وتمضين دون أدنى اهتمام بها.

في اليوم الثالث رأينا «باك». كان في حظيرة خلفية، يضعون فيها الجراء المتماثلة للشفاء. عندما وصلنا إلى الحظيرة لم يقفز نحونا مع غيره، ظل قابعًا حيث كان ... لم يرفع حتى رأسه.

«أريد هذا» ... قلتِ، وأنت تشيرين إليه. هل تتذكرين تلك النظرة المدهوشة على وجه المرأة؟ لم تفهم سبب اختيارك لذلك الجرو الذي يخلو من أية جاذبية، هل يمكن أن تلوميها لذلك؟ «باك» كان جروًا صغيرًا، ومع ذلك كان يحمل صفات من كل السلالات المعروفة للإنسان. كان له رأس «الشيبارد» الألماني، والأذنان الطريتان المدلاتان لـ «الجن دوج»، والمخالب الدقيقة المدبَّبة لـ «الدشهند»، والذيل الزغبي لـ «الكولي» الويلزي، واللون الأسود والأحمر لـ «الدوبرمان». وعندما ذهبنا إلى المكتب لتوقيع الأوراق روت لنا قصته. كان قد ألقى به صاحبه من سيارة مسرعة في أوائل الصيف، وأُصيب بجراحٍ شديدة، ولازم إحدى رجليه الخلفيتين عرجٌ دائم.

«باك» جواري الآن، وأنا أكتب إليكِ، يتنهد من وقتٍ لآخر، ويلمس رجلي بحافة أنفه. وجهه وأذناه الآن لونهم أبيض تقريبًا، وبدأت الطبقة الرقيقة التي تنمو على عينيه تؤثر على بصره منذ فترة طويلة.

منظره مؤثر، أشعر أن جزءًا منكِ جواري؛ الجزء الذي أحبه أكثر من أي شيء آخر، الجزء الذي جعلكِ منذ سنوات بعيدة تختارين أتعس وأقبح كلب من بين المائتين في المربى.

وأنا أتجول — بلا هدف — في المنزل الخالي في الأشهر القليلة الماضية، كان سوء الفهم والمزاج السيئ الذي دمر حياتنا معًا قد اختفيا.

الذكريات التي تحيط بي الآن هي ذكرياتي عنكِ كطفلة، ذكريات عن كائن قابل للجرح، سريع التأثُّر حائر. أنا أكتب لذلك الطفل، وليس لذلك الشخص الدفاعي المتعجرف، الذي صار في السنوات التالية. جاءتني الفكرة بوحي من شجرة الورد، قالت لي وأنا مارة

أمامها هذا الصباح: هاتي أوراقك واكتبي رسالة إليها. لم أنسَ أن أحد البنود التي اتفقنا عليها — قبل رحيلك — هو ألا نكتب، ولسوف أحترم ذلك، وإن كان على مضضٍ. هذه الصفحات التي أسطرها لن تجد طريقها إليكِ في أمريكا. عندما تعودين ستجدينها في انتظارك إن لم أكن على قيد الحياة. لماذا أقول شيئًا كهذا؟

لأنني منذ شهر تقريبًا، ولأول مرة في حياتي، وأنا تحت وطأة مرض شديد؛ لذا أضع في حسباني احتمالًا آخر. في خلال ستة أشهر أو سبعة، قد لا أكون هنا لكي أفتح لك الباب، وأضمك إلى صدري. منذ وقت قريب كانت صديقة لي تقول: إن المرض عندما يهاجم شخصًا لم يعرف المرض في حياته، فإن ذلك يكون دائمًا على نحوٍ مفاجئ وعنيف، وهذا ما حدث لي بالضبط. ذات صباح، وبينما كنت أروي شجرة الورد، شعرت فجأة بأن شخصًا قد أطفأ النور. ولو لم ترني زوجة السيد «رازمان» من خلال السور الذي يفصل بين حديقتينا، فلربما كنتِ الآن يتيمة. «يتيمة؟»، هل هذه هي الكلمة المناسبة لوصف شخص ما يفقد جدته؟ لستُ واثقة! ربما كان الأجداد يُعتبَرون في درجة ثانوية من الأهمية، لدرجة أن فقدانهم لا يحتاج لعبارة خاصة! الأجداد لا يتركون وراءهم أيتامًا ولا أرامل، إننا نتركهم على جانبي الطريق، مثلما نترك مظلة بسبب شرود الذهن أحيانًا.

عندما أفقتُ في المستشفى، لم أستطع أن أتذكر شيئًا مما حدث على الإطلاق، قبل أن أفتح عيني كنت أشعر كأن شوارب طويلة قد نمت لي، شوارب دقيقة مثل شوارب القطط، ولكنني بمجرد أن فتحتهما اكتشفت أنهما كانا أنبوبين صغيرين من البلاستيك، يمتدان من أنفي عبر شفتي. لم يكن حولي سوى أجهزة وأدوات غريبة. بعد أيام قليلة، نقلوني إلى جناح عادي كان به مريضان آخران.

وبعد ظهيرة أحد الأيام، جاء السيد «رازمان» وزوجته لزيارتي، قالا: «أنتِ مَدينة بحياتكِ لكلبنا، لقد كان ينبح كالمسعور!»

وبعد يوم، عندما سمحوا لي بالحركة، حضر إلى غرفتي طبيب شاب، كنت أراه كثيرًا في جولاته المرورية. جذب كرسيًّا، وجلس جوار سريري. قال: «حيث إن لا أقارب لك لرعايتك، أو اتخاذ قرار بشأنك، فلا بد أن أستغني عن وجود طرف ثالث، وأتكلم معك بصراحة ...»

كنت، وهو يتكلم، أراقبه أكثر من أن أستمع إليه. كانت له شفتان رقيقتان، وكما تعرفين، أنا لا أحب — أبدًا — ذوي الشِّفاه الرقيقة. وكما قال، كانت حالتي خطرة جدًّا، وبدرجة لا تسمح بعودتي إلى المنزل للحياة بمفردي. وذكر أسماء دارين أو ثلاثة من دُور المسنين المزوَّدة بوسائل التمريض؛ حيث يمكن أن أذهب لأقيم، ولا بد أن يكون قد فهم شيئًا من تعبيرات وجهي؛ لأنه أردف بسرعة: «لا تظني أنها مثل ذلك النوع القديم من

أماكن الاستضافة، التي تنفق عليها منظمات دينية أو غيرها ... كل شيء هناك مختلف ... الغرف مشمسة، جيدة التهوية، وهناك حدائق فسيحة ...»

قلت له: «هل تعرف شيئًا عن الإسكيمو يا دكتور؟»

«طبعًا!»، قال وهو يَهمُّ بالانصراف.

«أنا أنوي أن أموت مثلهم.»

ويبدو أنه لم يفهم قصدي، فأضفتُ: «أنا أفضِّل أن أقع على وجهي بين الكوسة في حديقة مطبخي، عن الحياة — عامًا آخر — طريحة الفراش في غرفة بيضاء الجدران.»

كان في طريقه للخروج، ولكنه استدار، وعلى وجهه ابتسامة ماكرة، ليقول: «كثيرون يقولون ذلك، ولكنهم، في آخر لحظة، يعودون مسرعين، يرتعشون مثل ورق الحور الرجراج، ويطلبون الرعاية.» بعد ثلاثة أيام وقَّعت تعهدًا بالخروج على مسئوليتي. أعطيت الورقة لمرضة ذات رأس صغير، يتدلى من أذنيها قرط ضخم. وبعد أن وضعت أشيائي الصغيرة في حقيبة بلاستيك، ذهبتُ إلى موقف التاكسي.

بمجرد أن رآني «باك» عند باب الحديقة، راح يجري في دوائر كالمجنون، ولكي يعبِّر عن فرحته بي، دمَّر مساحة كبيرة من الزهور، وهو يجري وينبح بلا توقف. لم يكن لي قلب لأزجره! وعندما اقترب مني — بأنفه المغطى بالطين — قلت: وهكذا عدنا معًا يا صديقي القديم ... أليس كذلك؟ وخمشته خلف أذنيه.

في الأيام التالية لم أفعل شيئًا، أو لعلِّي فعلتُ أشياء قليلة.

منذ النوبة، وإحساسي أسفل جنبي الأيسر ضعيف، ويدي اليسرى — تحديدًا — تتحرك ببطء. تزعجني فكرة الاستسلام لذلك، وهكذا أفعل كل ما في وسعي لكي أستخدمها أكثر من اليمنى. ربطت أنشوطة حمراء على رسغي، بحيث أتذكر أن أستخدم اليسرى بدل اليمنى كلما مددت يدي. إننا لا ندرك أن أجسادنا يمكن أن تكون عدوًّا مرعبًا، ما دامت تعمل بكفاءة، ولكننا نضيع إذا تخلَّينا عن حذرنا لحظة واحدة. الشيء نفسه. عندما وجدت أن اعتمادي على نفسي لم يعد كما كان، أعطيت زوجة «والتر» مجموعة مفاتيح، وهي تطل عليَّ، وتحضر لي احتياجاتي.

وأنا أجول في المنزل والحديقة، أفكر فيكِ بإلحاحٍ ... ولدرجة الهوس. أكثر من مرة أذهب إلى التليفون، وأرفع السماعة، وأفكر في إرسال برقية لك. ثم أتخلى عن الفكرة، في كل مرة، بعد أن تكون البدالة معي على الخط.

في المساء، وأنا جالسة في مقعدي — الفراغ أمامي والصمت حولي — أسائل نفسي: ماذا يمكن أن أفعل؟ ما هو الأفضل؟ الأفضل — طبعًا — لكِ، وليس لي.

الأفضل بالنسبة لي — قطعًا — هو أن تكوني جواري عندما أموت، وأنا واثقة أنني لو أخبرتكِ بمرضي كنتِ ستختصرين إقامتك في أمريكا وتجيئين مسرعة. ثم ماذا؟ ماذا لو عشت ثلاثة أو أربعة أعوام أخرى قعيدة — ربما — على كرسي متحرك، أو في غيبوبة، وأنت تقومين برعايتي باهتمام؟ ستفعلين ذلك بإخلاص، ولكن ذلك الإخلاص سيتحوَّل — في وقتٍ لاحقٍ — إلى غضب ومرارة. والمرارة ستأتي عندما تكون السنوات قد مرَّت وضاع شبابك. سيكون حبك لي قد ارتدَّ أذاه إلى نحركِ، ودفع حياتك في طريق مسدود. كان ذلك هو الجدل الذي يمارسه صوتٌ بداخلي، لا يريد أن يتصل بك. ولا أكاد أقول إن تلك حقيقة حتى يجيء صوت آخر بجدلٍ آخر. ماذا يمكن أن يحدث — أتساءل — لو جئتِ، وفتحتِ الباب، ووجدت منزلًا مهجورًا منذ زمن، ولم تجديني، ولم تجدي «باك» مندفعين للقائك؟ هل هناك ما هو أسوأ من عودة محبَطة التحقق؟

لو تلقيتِ برقية تخبرك بموتي، ألا تعتبرين ذلك نوعًا من الخيانة، وعملًا شريرًا؟ هل كنتُ أعاقبكِ بانصرافي دون كلمة، بسبب إهمالكِ لي في الأشهر الأخيرة؟ لن يكون ذلك أذًى يرتد إلى النحر، وإنما هاوية، ولا أعتقد أن أحدًا يمكن أن ينجو من تجربة كتلك. ستظل الأشياء التي كنت تودِّين أن تقوليها حبيسة بداخلك إلى الأبد. الجدة التي أحببتِ ستُوارى الثَّرى، ولن تنظري في عينيها مرة أخرى، لن تضميها، وتقولي لها ما لم تقولي.

ومرَّت الأيام دون أن أصل إلى قرار ما. هذا الصباح فقط ألهمتني شجرة الورد الفكرة؛ قالت: اكتبي لها، اكتبي سجلًّا» لأيامك يؤنس صحبتها بعد رحيلك. وها أنا ذا في المطبخ، أمام واحدة من كراسات تمارينك القديمة، أعض قلمي كفتاة متعثرة أمام فروضها المدرسية.

وصية؟ ليس بالضبط، وإنما شيء يمكن الاحتفاظ به على مدى سنوات، شيء يمكن أن تقرئيه كلما شعرت بالحاجة لأن أكون جوارك. لا تقلقي، لا أنوي أن أنصِّب من نفسي معلمة لك ... ولا أريد أن أزعجك. سوف أثرثر معك فقط بتلك الحميمية التي كانت تضمُّنا ذات يوم، وفقدناها في السنوات القليلة الأخيرة.

ولأنني عشت طويلًا، وتركت كثيرًا من الناس ورائي، فإنني أدرك الآن أن غياب من ماتوا ليس هو الذي يثقل على نفوسنا ... وإنما الكلمات التي لم يُنطَق بها بيننا وبينهم. وكما ترين، كنت أتباعد — دائمًا — عندما كان لا بد أن أقوم بدور الأم بالنسبة لك، في عمر لا يتوقع الناس فيه مني أن أكون أكثر من جدة.

وكان لذلك مزايا كثيرة. أنت استفدت لأن «سِتُّو» ستكون أكثر انتباهًا من «أم»، وأنا استفدت لأنني عدت إلى مجرى الحياة الرئيس، بدل الاستسلام للشيخوخة مع لقاءات لعب الورق في نادي السيدات مع من هن في مثل عمري. لكن جاء وقت ... عندما انقطع كل شيء فجأة. لم تكن غلطتي، لم تكن غلطتك؛ إنها الطبيعة تأخذ مجراها الطبيعي. الطفولة والشيخوخة متشابهتان جدًّا. في الحالتين، ولأسباب مختلفة، هناك عنصر اللادفاع. لم نعد جزءًا من العالم النشِط، أو ربما توقفنا عن أن نكون كذلك، واستجاباتنا يمكن أن تكون تلقائية وصريحة.

في سن المراهَقة تبدأ في التكوُّن حولنا محارةٌ لا مَرئية، وتتصلَّب حول أجسامنا شيئًا فشيئًا ... تصبح أكثر سُمكًا ... فأكثر ... مع النضج. تنمو كما تنمو اللؤلؤة داخلَها، وكلَّما كان الجرح كبيرًا وغائرًا، تصبح القشرة أكثر قوةً وصلابة. ورغم ذلك ... تصبح مثل الرداء الذي نلبسه كثيرًا، بمرور الزمن يرقُّ في مواضع كثيرة، وفجأةً يتمزَّق نتيجة حركة مفاجئة! في البداية لا تلحظين شيئًا؛ لأنك تكونين واثقة من حماية المحارة لك، بعد ذلك يحدث شيء بسيط، ودون أن تعرفي السبب تجدين نفسك تصرخين كالأطفال؛ هذا بالتحديد ما كنت أقصده، عندما قلت لك إن مزقًا قد انفتح، طبيعيًّا، بيننا.

وفي الوقت الذي كانت فيه محارتك قد بدأت في النمو، كانت محارتي تتآكل وتضمحل. لم تستطيعي أن تتحمَّلي دموعي، وأنا لم أتحمَّل قسوتك الجديدة.

ورغم أنني كنت مهيأة لتغيُّر شخصيتك مع المراهقة، إلا أنني، بمجرد حدوث ذلك التغيُّر، كان من الصعب عليَّ تحمُّله.

وجدت نفسي — وجهًا لوجه — مع شخص آخر، شخص لا أعرف كيف أتعامل معه. في الليل، عندما كنت آوي إلى الفراش، وأستجمع أفكاري كما يفعل الآخرون عند النوم، كنت أشعر بأنني لست ضد ما يحدث لك. كنت أقول لنفسي إن أحدًا لا يمر بمرحلة المراهقة دون أذًى، ويصبح شخصًا ناضجًا بحقٍّ. ولكن ... عندما صفقتِ الباب في وجهي في الصباح التالي كان ذلك أمرًا محزنًا ... أصابني بالاكتئاب. كنت على وشك البكاء. ورغم محاولتي، لم أستطع أن أستجمع طاقة كافية لمقاومتك. لو قُدِّر لك أن تعيشي حتى الثمانين، فستفهمين أن الناس — في مثل ذلك العمر — يشعرون بأنهم كأوراق الشجر في نهاية سبتمبر. مع قصر الأيام، تسحب الشجرة المواد الغذائية داخلها شيئًا فشيئًا. يعيد الجذع امتصاص النيتروجين والكلوروفيل والبروتين. وهكذا تذهب معها الخضرة والمرونة. الأوراق تظل معلَّقة، ولكنها تعرف أنها لن تبقى طويلًا، هكذا. ثم تسقط واحدة تلو

الأخرى، تشاهدينها تتساقط، وتعيشين في خوف دائم من هبوب الريح. في حالتي ... كنت أنت الريح! حيوية مراهقتك التي واجهتني؛ لم تدركي ذلك أبدًا ... هل أدركتِ يا حبيبتي؟ كلانا كان معلقًا بالشجرة نفسها، وإن اختلفت الفصول.

أتذكر رحيلك، وكيف كانت حالتنا يومها، لم تتركيني أذهب معك إلى المطار، وعندما كنت أذكِّرك بوضع شيء أو آخر في حقيبة السفر، كان ردك الجاف: «أنا ذاهبة إلى أمريكا، وليس إلى الصحراء»، وأنت خارجة من الباب، صحتُ خلفك، بصوتي المشروخ: «اهتمي بنفسك!»، ودون أن تكلِّفي خاطرك مجرد الالتفات، غادرتِ قائلة: «اهتمي بـ «باك» وشجرة الورد.» لا بد أن أعترف أن كلماتك — حينذاك — أصابتني بشعور عميق بالإحباط.

وكامرأة مسنَّة، مفرطة في العاطفة، كنت أتوقع شيئًا بسيطًا، قبلة أو كلمة حب.

في تلك الليلة فقط، وعندما تخليت عن محاولة النوم، ورحت أجُول في أرجاء المنزل بملابس النوم، كان أن فهمت أن العناية بـ «باك» وبشجرة الورد ... تعني الاهتمام بذلك الجزء منك الذي ما زال يعيش معي ... الجزء السعيد ... أدركت كذلك أن ما جعلك تتكلمين، بمثل تلك الحدة، لم يكن عدم الإحساس، ولكنه التوتر، لأنك كنت تحبسين دموعك. تلك هي المحارة التي ذكرتها لكِ. محارتك ضيقة محكمة حولك؛ لذا تتنفَّسين بمشقة، هل تتذكرين ما قلته لك مرارًا في تلك الأشهر الأخيرة؟

الدموع التي لا نذرفها، تستقر في القلب وحوله، وبمرور الوقت تُكَوِّن قشرة تصيبه بالشلل، مثل قشرة الكلس المتبقية في غسالة الملابس. أعرف أن هذه التشبيهات المستمدة من الحياة المنزلية تصيبك بالضجر أكثر من أن تسليك ... تحمَّليها ... فكل إنسان يستلهم ما هو مألوف له.

والآن ... لا بد أن أتوقف؛ «باك» يتنهد وينظر إليَّ متوسلًا. هو أيضًا نموذج لإيقاعات الطبيعة. وأيًّا كان الفصل، فهو يعرف موعد طعامه بدقة، يمكن أن تضبطي ساعتك عليه.

١٨ نوفمبر

ليلة أمس أمطرت السماء بشدة، لدرجة أن صوت المطر على مصاريع الشبابيك أيقظني عدة مرات. وعندما فتحت عيني، هذا الصباح، وجدت أن الجو كان ما يزال سيئًا، فبقيت منكمشة في الفراش لوقتٍ طويل. كم تتغير الأشياء بمرور الزمن! وأنا في مثل عمرك كنت مثل حيوان الزغبة، أواصل نومي حتى الغداء، إن لم يوقظني أحد. الآن ... أصبحتُ أستيقظ قبل الفجر، مما يجعل اليوم طويلًا جدًّا، طويلًا بلا نهاية. أمر قاسٍ ... ألا تعتقدين ذلك؟

وبصرف النظر عن أي شيء آخر، فإن ساعات الصباح هي أسوأ ساعات النهار، حيث لا يوجد فيها ما يشغلك، وتجدين نفسك مغلقة على نفسك، فكل الأفكار تدور فقط حول الماضي.

أفكار الشخص كبير السن ليس لها مستقبل، ومعظمها حزين، وإن لم تكن حزينة، فهي على الأقل كئيبة. تساءلت كثيرًا عن هذا الجانب الغريب من الطبيعة. بالأمس شاهدت فيلمًا تسجيليًّا جعلني أسرح بأفكاري. كانوا يتكلمون عن أحلام الحيوانات، واضح أن جميع الحيوانات تحلم كثيرًا ... بدءًا من الطيور، وارتقاء عبر التسلسل الطبيعي. طائر القرقف، الحمام، الأرانب، السنجاب، الكلاب، البقر الهاجع في الحقول ... كلها تحلم، وإن كان بطرقٍ مختلفة.

الحيوانات التي تفترسها حيوانات أخرى أحلامها قصيرة جدًّا، وهي رؤى شبحية، أكثر منها أحلامًا. من ناحية أخرى، للضواري أحلامها الطويلة المعقدة. كان الراوي في الفيلم يشرح: «الأحلام بالنسبة للحيوانات أسلوب لتنظيم استراتيجية البقاء. الصيادون عليهم دائمًا أن يبتكروا طرائق جديدة للحصول على طعامهم، بينما طعام من يتم اصطياده موجود أمامه على هيئة عشب، ما عليه إلا أن يفكر في أسرع طريقة للهرب.»

لذا، بينما يرى الظبي النائم السهل المنبسط أمامه، فإن الأسد النائم يرى كل الأشياء التي عليه أن يقوم بها قبل أن يأكل الظبي، يرى ذلك كله في سلسلة من المَشاهِد التي تتكرر مع تنويعات مختلفة. لذلك كنت أفكر أننا لا بد أن نكون من اللواحم ونحن صغار، ومن العواشب ونحن كبار! لأن المسنين، إلى جانب أنهم لا ينامون كثيرًا، فإنهم لا يحلمون، وربما إذا حلموا ... ينسون أحلامهم.

من ناحية أخرى، نجد أن الأطفال وصغار السن يحلمون أكثر من غيرهم ... بكثيرٍ، وأن أحلامهم حية ... تقرر حالتهم على مدى اليوم.

هل تتذكرين كيف كنتِ تقومين من النوم باكية في الأشهر القليلة الأخيرة؟ كنت تجلسين، وقهوتك أمامك على الطاولة، ودموعك تنثال — في صمت — على خديك. لماذا تبكين؟ سألتك كثيرًا، وكنت تردين عليَّ: «لا أعرف.» أحيانًا كنت تردِّين بكآبة، وأحيانًا بغضبٍ.

في مثل ذلك العمر كانت تدور بذهنك أشياء كثيرة ... كان لا بد أن تُحدَّد، كانت لديك مشروعات، وخطط ... والمشروعات والخطط تعني الشك وعدم اليقين. ليس للاوعي نظامٌ ولا منطق واضح، إنه يمزج فتات اليوم، متورمة كانت أو مشوهة، بالآمال الكبيرة والطموحات، وبين الطموحات الكبرى يدخل اللاوعي احتياجات الجسد.

ولذا، فإن الشخص الجائع يحلم بالجلوس على مائدة، دون أن يكون قادرًا على الأكل، والشخص الذي يشعر بالبرد، قد يجد نفسه في القطب الشمالي دون معطف، وإذا كان قد أهانه أحد، يصبح مقاتلًا شديد الضراوة.

بم تحلمين عندك بين الصبار ورعاة البقر؟ كم أحب أن أعرف! وأتساءل، بيني وبين نفسي، هل أظهر لك أحيانًا، ربما في جلد امرأة من الهنود الحمر؟ هل يظهر لك «باك» في هيئة ذئب صغير من ذئاب الشمال الأمريكي؟ هل تشعرين بالحنين للوطن؟ هل تفكرين فينا؟

مساء الأمس، ومصادفة، بينما كنت أقرأ جالسة في مقعدي، سمعت صوتًا رتيبًا، رفعت عيني من على الصفحة، ورأيت «باك» يضرب الأرض بذيله وهو نائم. من ملامح السعادة على وجهه كنت واثقة أنه كان يراكِ أمامه، ربما كنتِ قد عدت لتوك، وكان يحتفي بقدومك، وربما كان يستعيد تمشية لطيفة لكما معًا.

الكلاب سريعة التأثُّر بعواطف البشر بدرجة مدهشة، ولأنها تعيش معنا منذ فجر التاريخ، فقد نمت لتصبح مثلنا. ولذا يكرهها كثير من الناس بشدة. يرون أنفسهم كثيرًا منعكسين في تلك العيون الحنونة ... الخانعة ... يرون فيها أشياء لا يريدون أن يعرفوها.

كان «باك» يحلم بك كثيرًا في الفترة الأخيرة. وكنت أتمنى أنا أيضًا، ولكنني لم أستطع، وربما أحلم بك ولا أتذكر.

عندما كنت طفلة صغيرة، كانت تعيش معنا شقيقة لأبي بعد موت زوجها، كانت روحانية متحمسة، وعندما يخرج والداي كانت تأخذني إلى زوايا المنزل الأكثر ظلامًا وسرية، وتحكي لي عن القوى غير العادية للعقل، وتقول: إذا أردت أن تتصلي بشخصٍ ما بعيد، أمسكي صورته بيدك، وارسمي شكل صليب، بأن تتحركي ثلاث خطوات، ثم قولي: «أنا هنا»، وهكذا يمكنني — كما تقول — أن أتصل — روحانيًّا — بأي شخص أريد.

اليوم، بعد الظهر، قبل أن أبدأ الكتابة فعلتُ ذلك، كانت الساعة الخامسة تقريبًا، لا بد أنه كان صباحًا عندكم.

هل رأيتني؟ أو سمعتني؟ أنا رأيتُك في واحدة من تلك المقاهي المضيئة، التي تقدم شطائر اللحم، وعرفتك على الفور؛ لأنك كنت ترتدين آخر «بلوفر» صنعته لك. عرفتك رغم زحام الألوان، على «البلوفر» أُيِّل أحمر وآخر أزرق، إلا أن الصورة، على أية حال، كانت سريعة، ومثل صور الفيديو أو التليفزيون، فلم أتمكن من رؤية التعبير على عينيك. هل أنت سعيدة؟ ذلك ما يهمني أكثر من أي شيء آخر.

هل تتذكرين كيف تناقشنا طويلًا عن الصواب والخطأ في إنفاقي على دراستك الطويلة في الخارج؟ كنت تقولين إنها ضرورية جدًّا بالنسبة لك، ولكي ينمو عقلك وينضج لا بد أن تبتعدي عن ذلك المحيط الخانق الذي نشأت فيه. كنت قد أنهيت دراستك المتوسطة، وليس لديك فكرة عما سوف تفعلين في عالم الكبار. كانت لديك — كطفلة — ميول كثيرة مختلفة، تريدين أن تكوني طبيبة بيطرية ... مكتشِفة ... طبيبة أطفال. كل تلك الميول تلاشت، ولم تترك أثرًا. اهتمامك الأولي بالآخرين بدأ يتقلص، كل ميل نحو فعل الخير، أو أن تكوني جزءًا من المجتمع تحوَّل إلى عزلة وهوس بمصيرك الخاص.

إن حدث، وشاهدنا معًا شيئًا قاسيًا في التليفزيون؛ كنت تسخرين من تعاطفي، وتقولين: «لماذا يدهشك أي شيء، وأنت في هذه السن؟ ألا تعرفين أن الانتخاب الطبيعي هو سنة الحياة؟»

عندما أبديت مثل تلك الملاحظة أول مرة أصابني ذهول، أحسست بأن وحشًا يجلس جواري. نظرت إليكِ بطرف عيني، وأنا أتساءل: من أين جئتِ؟ وإن كان ذلك ما علَّمتك إياه عن طريق النموذج الذي قدمته لك ... نموذجي؟ لم أرد عليك أبدًا في مثل تلك المناسبات، كنت أعرف أن زمن الحوار قد ولَّى، وأن أي شيء أقوله، مهما كان، لن يؤدي إلا إلى مواجهة لا أحبها.

من ناحية، كنت أخشى ضعفي، وأن أبذل جهدًا دون مبرر، ومن ناحية أخرى، كنت أشعر أن هدفك هو المواجهة الصريحة، وأن المواجهة الأولى سيتبعها مواجهات أخرى كثيرة، وربما تكون أكثر عنفًا. كنت ألاحظ وراء كلماتك طاقة مستعرة، متعجرفة، على وشك الانفجار، ومحبوسة بصعوبة. كان تنعيمي للحواف الخشنة، وتظاهري باللامبالاة بهجومك؛ يجبرك على إيجاد مخارج أخرى للتنفيس عن تلك الطاقة. حدث ذلك عندما هددت بالرحيل، والاختفاء من حياتي، وأنك لن تريني أو تكتبي إليَّ مرة أخرى. ربما كنت تختبرين اليأس المفضي إلى التهور، وإلى التوسلات الخانعة لامرأة عجوز. عندما قلت لكِ إنها فكرة ممتازة ... لك أن تذهبي إن شئت، بدأ اضطرابك وظهر ترددك. كنتِ مثل الحية التي رفعت رأسها، وفتحت فمها، واستعدت للهجوم ... ولكنها لم تجد أمامها شيئًا تهاجمه؛ لذا بدأت المساومة ... قدمت اقتراحًا تلو الآخر ... كانت كلها غير واضحة، إلى أن جاء يوم أعلنت فيه — بثقة انتابتك فجأة — ونحن نتناول القهوة: «أنا ذاهبة إلى أمريكا.»

رحبت بهذا القرار، كما فعلت بالنسبة لغيره، بشكل ودِّي. كان آخر شيء أريده هو أن أشعر أن موافقتي سوف تضطرك إلى اتخاذ قرار متسرع، لستِ واثقة منه تمامًا.

في الأسابيع التي تلت ذلك واصلتِ كلامك عن الفكرة نفسها ... فكرة الذهاب إلى أمريكا.

قلتِ وكررتِ، بشكلٍ مرضي: «ليتني أستطيع أن أذهب لمدة عام، على الأقل سأتعلم لغة جديدة، ولن أضيع وقتي». أزعجك جدًّا قولي إن تضييع الوقت ليس شيئًا سيئًا، ولكن انزعاجك لم يكن له حدود عندما قلت: إن الحياة ليست سباقًا، وإنما مسابقة في الرماية؛ توفير الوقت لا يهم، ما يهم هو إصابة عين الثور. كان هناك فنجانان على الطاولة، ألقيتِ بهما فتحطما على الأرض بضربة من يدك، قبل أن تنفجري في البكاء. قلتِ: «أنت غبية!»، ودفنتِ وجهكِ بين كفيكِ.

«أنت غبية! ألا تعرفين أن تلك هي رغبتي.» وعلى مدى أسبوعين كنا مثل جنديين دفنا لغمًا أرضيًّا في حقل، ويخشيان أن يطآه. كنا نعرف مكان اللغم، ونسير متباعدين، ندَّعي أن ما نخشاه شيء مختلف. وأخيرًا، عندما انفجر، وكنت تنتحبين، كما قلت لي، لم أعرف شيئًا، ولم أكن لأعرف أبدًا، كان ذلك هو كل ما يمكن أن أفعله حتى لا تدركي كم كنت مستاءة!

لم أحكِ لك أبدًا عن أمك، ولا عن الظروف المتعلقة بالحمل بك، ولا عن موتها. صمتي جعلك تعتقدين أن تلك الأمور لم تكن ذات أهمية بالنسبة لي، لكن أمك ابنتي. ربما تكونين

قد أغفلتِ تلك الحقيقة، أو ربما تكتمينها داخلك بدل الكلام عنها، وهذا هو التفسير الوحيد الذي يدور في عقلي من طريقة نظرك إليَّ أحيانًا، وللكراهية التي أسمعها في صوتك.

بصرف النظر عن هذه الفجوة في حياتك، فأنتِ ليس لديك ذكريات عنها. عندما ماتت كنتِ طفلة صغيرة، أما أنا فكان لديَّ ثلاثة وثلاثون عامًا من الذكريات. ثلاثة وثلاثون عامًا، بالإضافة إلى تسعة أشهر حملتها فيها. كيف تعتقدين أنني لا أشعر بشيء من ذلك؟ لم أتناول هذا الموضوع من قبل، وذلك بسبب الخجل، وبسبب ذات متضخمة. هكذا ببساطة! الخجل ... لأنني إذا تكلمت عنها فلا بد أن أتكلم عن نفسي، وعن ذنبي، سواء كان حقيقيًّا أو ملصقًا بي. أما الأنوية فلأنني كنت آمل أن يكون حبي لك عظيمًا؛ بحيث لا تفتقدين حبها، ولا تشعرين أبدًا بالحاجة إلى أن تسأليني: من هي أمي؟ ولماذا ماتت؟

عندما كنتِ طفلة كنا سعداء معًا، وكنتِ أنت طفلة سعيدة، ولكن سعادتك لم تكن أبدًا ظاهرية أو مصطنَعة، كانت دائمًا في خطر أن تكون عرضة للتأمل، فكنت تنتقلين من الضحك إلى الصمت بسهولة مدهشة. عندما كان يحدث ذلك كنت أسألك: «ما بك؟ بم تفكرين؟» وكنتِ تردين عليَّ باستخفافٍ، كما لو كنا نناقش شيئًا نتناوله مع الشاي. «أنا أتساءل ما إذا كانت السماء تنتهي في مكان ما، أو أنها ممتدة إلى ما لا نهاية» كنتُ فخورة بك لذلك. حساسيتك مثل حساسيتي. لم أكن واعية بفرق السن بيننا ولا بالمسافة، وإنما بشراكة عاطفية. كنت أضلل نفسي، أو أريد أن أضلل نفسي بأن الأمر سيكون هكذا دائمًا. لكن، لسوء الحظ، لم نكن معلقتين في فقاعات الصابون الطافية سعيدة في الهواء. في حياتنا قبل وبعد. وبين هذه الـ «قبل» وهذه الـ «بعد» يكمن مصيرنا مأسورًا كأنه في شبكة أو فخ مطبق عليه.

يقولون إن خطايا الآباء تصيب الأبناء؛ وهذا صحيح تمامًا، خطايا الآباء تقع على أبنائهم، وخطايا الأجداد على الأحفاد، وخطايا الأجداد الكبار على أبناء الأحفاد.

بعض الحقائق تشعرك بالتحرر، والبعض الآخر مرعب. وهذا يقع في الصنف الأخير. أين تبدأ سلسلة الذنب؟ هل من عند «قابيل»؟ هل يمكن أن تكون قديمة إلى هذا الحد؟ هل هناك شيء ما وراء ذلك كله؟ قرأت ذات مرة في كتاب، عن الفلسفة الهندية، أن القدر يمتلك القوة كلها، ونحن نتصور أن الإرادة يمكن أن تكون مختلفة. عندما قرأت ذلك سكنت روحي واطمأنت. ولكن في اليوم التالي بالتحديد قرأت صفحات قليلة فهمت منها أن القدر ليس سوى نتيجة سابق أعمالنا، وأننا نحن الذين نشكِّل أقدارنا بأيدينا. وهكذا عدت إلى المربع الأول! حيث كنت أتساءل: وأين مفتاح ذلك كله؟ أين طرف الخيط الذي سيفك الكرة؟ وهل هو خيط أم سلسلة حديدية؟ هل يمكن أن نقطعه أو أن نكسره؟ أم

ترانا مقيدين به إلى الأبد؟ وحيث إنني أتكلم عن القطع، فلا بد أن أقطع كلامي الآن. لم يعد ذهني كما كان، هناك أفكار، لا شك في ذلك، وآرائي لم تتغير، ولكن ليست قدرتي على مواصلة جهد طويل. أنا الآن مرهقة، رأسي يدور، وعلى ما أذكر، كما كان يحدث وأنا طفلة، وأحاول أن أقرأ كتابًا في الفلسفة.

الوجود ... العدم ... الجوهر ... كانت صفحات قليلة كفيلة بأن تجعل رأسي يدور كراكب عربة في طريق جبلية وعرة. لا بد أن أتركك الآن، وأدع ذلك الصندوق العزيز ... البغيض ... في غرفة الجلوس يهدهدني في بلاهة تامة.

٢٠ نوفمبر

وها نحن هنا مرة أخرى، في ثالث أيام المواجهة، أو بالأحرى اليوم الرابع، رغم أننا تقابلنا ثلاثة أيام. بالأمس كنت متعبة، ولم أستطع أن أكتب أو أقرأ كلمة واحدة. كنت قلقة لا أعرف ماذا أفعل بنفسي، أمضيت اليوم كله أتجوَّل في المنزل والحديقة. كان الجو معتدلًا، وفي الأوقات الدافئة من النهار كنت أجلس على الدكة جوار شجيرة الفرسيتية. الحشائش وأحواض الزهور حولي في حالة سيئة. عندما نظرت إليها تذكرت مشاجرتنا حول كنس الأوراق الجافة المتساقطة، متى كان ذلك؟ العام الماضي؟ منذ عامين؟ كنت أعاني من التهاب الشعب الهوائية، ولم أستطع أن أكنسها ... وكانت الأرض مليئة بالأوراق التي تدوِّم في الريح، على نحوٍ دائري.

وأنا أنظر من النافذة إلى السماء المكفهرة، استولى عليَّ شعور شديد بالحزن. جئتُ إلى غرفتكِ، وكنتِ مستلقية على فراشك واضعة سماعات على أذنيك. رجوتك أن تقومي لتجمعي الأوراق، وكان عليَّ أن أكرر رجائي عدة مرات، كل مرة بصوتٍ أعلى من المرة السابقة. قبل أن تسمعيني هززتِ كتفيك، وسألتِ: «لماذا؟ في عالم الطبيعة لا أحد يكنس أوراق الشجر. تظل على الأرض حتى تتحلل، وهذا هو المفترض أن يحدث». في ذلك الوقت، كان عالم الطبيعة هو حليفك الأكبر، وكانت قوانينه الثابتة تزودك بعذرٍ ومبرر لكل شيء. وبدل أن أشرح لك أن الحديقة كانت جزءًا من عالم الطبيعة تم استئناسه، كلبًا من كلاب الطبيعة يكبر بمرور السنوات مثل سيده، ويحتاج عناية كالكلاب الحقيقية تمامًا، انسحبتُ إلى غرفة الجلوس دون كلمة أخرى.

بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، وأنتِ مارة بالقرب مني، في طريقك إلى المطبخ، في عملية إغارة على الثلاجة، لاحظتِ أنني كنت أبكي، ولكنك اخترتِ أن تتجاهلي ذلك تمامًا. ولم تخرجي من غرفتك إلا عند وقت العشاء، سألتِ: «ماذا هناك للعشاء؟»، ولاحظتِ أنني كنت ما أزال

في المكان نفسه ... وأبكي ... ذهبتِ إلى المطبخ، ورحتِ تشغلين نفسك بالقرب من الموقد، ثم صِحتِ من هناك: «ماذا تفضِّلين: بودنج شوكولاتة أم أومليت؟» لاحظتِ أنني كنت في حالة سيئة فعلًا، وحاولتِ أن تكوني لطيفة بعمل شيء يسرني.

بمجرد أن فتحت الشباك في الصباح التالي، رأيتك في الساحة، في المطر ... مرتدية المعطف الأصفر، وتجمعين أوراق الشجر. وعندما دخلت في التاسعة تقريبًا، لم أقل شيئًا؛ لأنني أعرف أنك لا تكرهين شيئًا في حياتك سوى ذلك الجانب من طبيعتك، الذي يوحي بشيء طيب أو لطيف.

وعندما نظرتُ بحزن هذا الصباح إلى أحواض الزهور، كنت أفكر أنه قد حان الوقت فعلًا لوجود شخص يمكن أن يعالج حالة الإهمال تلك التي وصلت إليها الحديقة منذ مرضي. كنت أفكر في ذلك منذ خروجي من المستشفى، ولكنني لم أقرر بعد. بمرور السنوات، أصبحت غيورة جدًّا في كل ما يتعلق بالحديقة. لا شيء في الدنيا يمكن أن يجعلني أسمح لأي شخص آخر أن يروي «الأضاليا» أو ينزع ورقة ميتة من فرع، وهذا شيء غريب؛ لأنني كنت أعتبر العمل في الحديقة مضجرًا عندما كنت صغيرة، وكنت أعتقد أن امتلاك حديقة مهمة شاقة أكثر منها ميزة.

بعد يوم أو يومين من الهدوء، عاد النظام الذي تحقق إلى الفوضى مرة أخرى، ولا شيء يتعب أعصابي أكثر من الفوضى. لم أكن أشعر باستقرار داخلي؛ لذا فإن حالة مماثلة في العالم الخارجي لم تكن محتمَلة، وكان عليَّ أن أتذكر ذلك عندما طلبت منك أن تجمعي أوراق الشجر؛ هناك أشياء لا يمكن أن نفهمها قبل أن نصل إلى عمر معين.

من تلك الأشياء علاقة المرء بمنزله، وبكل شيء حوله. عندما تصلين إلى السبعين، تدركين فجأة أن المنزل والحديقة لم يعودا منزلًا وحديقة لأنك تعيشين فيهما حياة مريحة، ولا لأنهما جميلان. هما منزلك وحديقتك، جزء منك، كما المحارة جزء من الكائن الموجود داخلها. لقد تكوَّنت المحارة من إفرازاتك، تاريخك منقوش في ثناياها. محارة المنزل تضمك، هي فوقك ومن حولك، الموت نفسه قد لا يحررها من وجودك، ولا من الأفراح أو الأحزان التي مررت بها في داخلها. مساء الإثنين لم تكن لديَّ رغبة في القراءة، لذا جلست لمشاهدة التليفزيون، رغم أنني — في الحقيقة — كنت أستمع أكثر مما أشاهد لأنني غفوت لأكثر من نصف الساعة تقريبًا. سمعت نتفًا من الحديث، كما يحدث عندما يغلبك النعاس في القطار، ويصلك نثار الكلام الذي يقوله المسافرون ... ولكنه لا يكفي لفهم شيء له معنى. كان هناك مناظرة بين صحفيين عن آخر مذاهب القرن العشرين. وكانت هناك لقاءات مع «أبطال» مختلفين، بينهم الحقيقي والزائف، وفي مجرى الحديث تكررت كلمة «كارما»

عدة مرات، على الفور استحضرت إلى ذهني وجه مدرس الفلسفة في مدرستي. كان شابًّا غير تقليدي في أفكاره بالنسبة لزمنه. وعندما كان يكلمنا عن «شوبنهاور» تحدث قليلًا عن الفلسفات الشرقية، ومن خلال ذلك عَرَّفنا على مفهوم «الكارما». في ذلك الوقت لم أهتم كثيرًا؛ الكلمة وتعريفها دخلا من أذن وخرجا من الأخرى. ولعدة سنوات ظلَّت في أعماق عقلي فكرة أنها كانت تنويعًا على قانون العين بالعين والسن بالسن، أو كما تفعل بالآخرين سيُفعَل بك.

«الكارما»، وكل ما يتعلق بها برزت إلى سطح عقلي يوم اتصلت بي مدرسة الحضانة بالتليفون تشكو من سلوكك الغريب.

لقد جعلتِ المدرسة كلها في حالة اضطراب. فجأة، وأثناء درس عن فن القص، رحتِ تتكلمين عن حياتك السابقة! في البداية كان المدرسون يعتبرون ذلك ليس أكثر من اضطراب عقلي طفولي؛ حاولوا أن يقللوا من شأن حكايتك، وأن يوقعوك في تناقضات. لكنك رفضتِ أن يوقعوا بك ... لدرجة أنك لفظتِ بعض الكلمات بلغة أجنبية غير مفهومة. وعندما حدث الشيء نفسه للمرة الثالثة، أرسلت ناظرة المدرسة تطلب أن أذهب لمقابلتها، ولمصلحتك، ومن أجل حماية مستقبلك، نصحتني بأن أعرضك على طبيب نفساني.

قالت: «بعد كل الذي مرَّت به، لا بد أن تتصرف على هذا النحو، أن تهرب إلى عالم من صنع الخيال.»

أنا بالطبع لم آخذك إلى طبيب نفساني، فقد كنتِ — كما يبدو لي — طفلة سعيدة، وكنت أميل إلى الاعتقاد أن لشطحات خيالك جذورها، ليس في مصاعب تعانين منها، وإنما في شيء مختلف تمامًا. بعد ذلك الحادث، لم أحاول أن أجبرك أبدًا على الكلام عن ذلك، ومن جانبك لم تشعري بالحاجة لذلك. ربما تكونين قد نسيتِ اليوم الذي تكلمت فيه عن ذلك مع مدرسيك المرعوبين.

لديَّ شعور أن الناس في السنوات الأخيرة أصبحوا يتكلمون كثيرًا عن مثل تلك الأشياء، بينما كان الكلام في الماضي لا يدور إلا بين قلة مختارة. الموضوع اليوم على كل لسان، ومنذ وقتٍ قريبٍ قرأت مقالًا عن جماعات في أمريكا مهتمة بموضوع تناسخ الأرواح، حيث يلتقي الناس ليتكلموا عن حياتهم الماضية. قد تقول ربة بيت، مثلًا: «في القرن التاسع عشر كنت بائعة هوًى في «نيو أورليانز»؛ ولذلك فأنا لا أستطيع أن أكون مخلصة لزوجي.» بينما قد يقول عامل عنصري في محطة بترول، وهو يحاول أن يبرر كراهيته للسود: «إن أفرادًا من قبيلة «البانتو» الزنجية قد التهموه أثناء رحلة صيد في القرن السادس عشر.» يا لها من حماقة! ويا له من أمر مؤسف! لأن الناس فقدوا الصلة بجذورهم الثقافية، يحاولون أن

يصنعوا لأنفسهم حياة ماضية لتعويض كآبة الحاضر، وعدم الشعور بالأمان، أما إذا كان لدورة الحياة معنًى، فلا بد أن يكون شيئًا مختلفًا عن ذلك.

عندما وقع حادث المدرسة، أحضرت بعض الكتب لكي أفهمك على نحو أفضل عن طريق معرفة أفضل ... وفي إحدى المقالات قرأت أن الأطفال الذين يتمتعون بذاكرة صافية عن الحياة الماضية، هم أولئك الذين أن واجهوا نهاية عنيفة قبل الأوان. بعض المخاوف المتسلطة التي لم أجد لها تفسيرًا في خبرات طفولتك — مثل الغاز المتسرب من الأنابيب، وخوفك من حدوث انفجار وشيك بين لحظة وأخرى — كانت تجعلني أتساءل بشأن ذلك التفسير الذي قرأت عنه.

كنتِ عند التعب أو النوم أو القلق يتملكك رعبٌ غير مفهوم، لم يكن رعبًا من «بعبع» أو ساحرة أو الرجل الذئب، وإنما كان رعبًا مفاجئًا؛ كنتِ تتوقعين أن العالم المادي كله سوف ينفجر. في المرات القليلة الأولى عندما حدث ذلك، وظهرتِ خائفة في غرفتي في صمت الليل، استيقظتُ وهدأتك وأخذتك إلى فراشك، وأنت راقدة ممسكة بيدي طلبتِ أن أحكي لك حكاية ذات نهاية سعيدة، كنت أخاف أن أحكي شيئًا يزعجك، كنتِ تقدمين أنت بعض التفاصيل الصغيرة، وأنا أتبع تعليماتك بحذافيرها. أكرر القصة مرتين أو ثلاثًا، وعندما أنهض للذهاب، معتقدة أنك قد هدأتِ، يأتيني صوتك الرقيق النعسان: «أهكذا تمضي القصة؟ وهل تنتهي هكذا دائمًا؟»، وكنت أعود إليك، ثم أقول بعد أن أطبع قبلة على جبهتك: «لا توجد نهاية أخرى يا حبيبتي ... أعدك بذلك.»

وفي ليالٍ أخرى، رغم أنني لم أكن أريدك أن تنامي معي في الغرفة نفسها — الأطفال يجب ألا يناموا مع الكبار — لم يكن قلبي يطاوعني أن أتركك تنامين في سريرك. وبمجرد أن أشعر بك واقفة جوار طاولة السرير الصغيرة، لا أستدير، ولكنني كنت أؤكد لك: «كل شيء تحت السيطرة، لا شيء سينفجر، يمكنك أن تعودي لغرفتك يا حبيبتي.» ثم أتظاهر بأنني قد رحت في النوم. ولفترة قصيرة يمكن أن أعرف، من صوت تنفُّسك الهادئ، أنك واقفة هناك بلا حركة، ولكن جانب السرير يحدث صريرًا ضعيفًا عندما تصعدين بهدوء قدر الاستطاعة، وتنكمشين جواري، قبل أن تستسلمي لنوم عميق مرهق مثل فأر صغير عاد إلى جحره الدافئ بعد خوف شديد.

ولكيلا أفسد اللعبة، كنت أحملك في الفجر — وأنتِ غارقة في الدفء والنوم — إلى غرفتك، ولا تتذكرين شيئًا تقريبًا عندما تستيقظين، وتعتقدين أنكِ قد قضيت الليلة كلها في فراشكِ.

وعندما تداهمكِ مشاعر الخوف هذه أثناء النهار، كنت أتحدث معك برفقٍ، وأقول: «ألا تلاحظين أن البيت قوي، والجدران سميكة؟ كيف يمكن أن ينفجر؟». ولكن كل محاولاتي لتهدئتك وطمأنتك كانت غير مجدية. كنتِ تحدقين في الفراغ، وأنتِ ترددين: «كل شيء قابل للانفجار»، ولم أتوقف أبدًا عن التساؤل عن ذلك الرعب الذي ينتابك. ماذا كان ذلك الانفجار؟ هل يمكن أن يكون ذكريات عن أمك؟ عن موتها المفاجئ المأساوي؟ هل له علاقة بتلك الحياة التي كنتِ تصفينها لمدرسيك في المدرسة كأمر واقع غريب؟ من يعرف؟ رغم كل ما يقولون، أعتقد أن هناك ظلامًا أكثر مما هناك من ضوء في العقل البشري.

الكتاب الذي اشتريته، في ذلك الوقت، كان يقول إن الأطفال الذين يتذكرون الحياة السابقة كثيرون جدًّا في الهند والشرق، تلك البلاد التي يعرف تراثها هذه الفكرة، وذلك يمكن أن أصدقه بسهولة. فكري فقط ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنني ذهبت إلى أمي ذات يوم، وبدأتُ أتكلم بلغة غريبة فجأة، أو تصوري أنني قلت لها: «لا أحبك، لقد كنت أكثر سعادة مع أمي السابقة.»

من المؤكد أنها كانت سوف تسلمني إلى مصحة عقلية في اليوم نفسه. هل توجد طريقة نحرر بها أنفسنا من المصير الذي تقرره لنا طفولتنا، أو ما يصل إلينا بالوراثة؟ من يعرف؟ ربما مع تتابع الأجيال المصابة بفوبيا الأماكن المغلقة، يتمكَّن شخص ما، في وقت ما، من أن يلمح — من على البعد — درجة أعلى من الآخرين، ويحاول أن يتسلقها بإصرار، أن يُدخِل هواءً طازجًا للغرفة، أن يخرج من الدائرة المغلقة، هذا في رأيي هو السر الدقيق في دورة الحياة. دقيق، لكنه مرهق ومخيف بسبب التباسه وغموضه. أمي تزوجت عندما كانت في السادسة عشرة، وأنجبتني وهي في السابعة عشرة. لم أرها تبدي أية بادرة حب أثناء طفولتي … أو بالأحرى، على مدى حياتي كلها. لم تكن حياتها حياة حب، لم يجبرها أحد على ذلك، هي التي أقحمت نفسها، ورغم أنها كانت يهودية وغنية إلا أنها كانت تريد لقبًا … تشتهيه. كان أبي أكبر منها سنًّا، «بارونًا» عاشقًا للموسيقى، وكان مسحورًا بموهبتها في الغناء. بعد أن أنجبا الوريث المطلوب لتخليد اسم العائلة الكريم، قضيا بقية العمر … كلاهما يحقد على الآخر، ويحتقره.

ماتت أمي ممرورة غير راضية، لم يكن لديها أية درجة من الشك في أنها ليست مسئولة عن ذلك الخطأ. كانت الدنيا هي التي عاملتها بقسوة لعدم إعطائها حظًّا أفضل! أما أنا فكنت مختلفة عنها تمامًا، وعندما أصبحتُ في السابعة، ولم أعد طفلة، لا حول لها ولا قوة، كنت أكرهها، عانيتُ كثيرًا بسببها؛ كانت مستثارة دائمًا، ولأسباب كثيرة …

ودون تمييز. «كمالها» الخاص المفترَض كان يجعلني أشعر بأنني سيئة ... والنتيجة هي العزلة. في البداية حاولتُ أن أكون مثلها، ولكن محاولاتي كانت خرقاء، ودائمًا كانت تنتهي بكوارث، وكلما كنت أحاول أكثر، يزداد شعوري بالقلق. الفشل يؤدي إلى فقدان احترام النفس، وبين احترام النفس والغضب خطوة قصيرة. بمجرد أن أدركت أن حب أمي كان مرتبطًا بأشياء خارجية فقط، بما كانت تريدني أن أكونه، وليس بما هو فيَّ، بدأت أكرهها ... وحيدة في غرفتي، وفي أعماق قلبي ... ولكي أهرب من هذا الشعور لجأت إلى عالمي الخاص.

في السرير ليلًا، وعلى ضوء أباجورة صغيرة، أقرأ كتب المغامرات. أحببت أحلام اليقظة، وفي مرحلة ما، كنت أحلم بأنني قرصان في بحر الصين، ولكن نوع خاص من القراصنة، لأن ما أسرقه من أموال ليس من أجلي، وإنما من أجل الفقراء. القراصنة ورؤساء العصابات في النهاية يستسلمون لأحلام الإحسان. فكرت أن أصبح طبيبة، وأذهب إلى أفريقيا لرعاية الأطفال السود.

في الرابعة عشرة قرأت «شليمان»، واكتشفت أنني لا يمكن أبدًا ... أبدًا أن أعالج الناس، حيث ميلي الأكبر كان نحو دراسة الآثار. ومن بين العدد غير المحدود من المهن والأنشطة التي تخيلت نفسي أمارسها، كانت الآثار هي الشيء الوحيد الذي يلائمني ... ربما! لست واثقة.

ولكي أحقق ذلك الطموح، حاربت معركتي الوحيدة مع أبي. كانت المعركة حول ضرورة ذهابي أو عدم ضرورة ذهابي إلى المدرسة المتوسطة وتلقي تعليم كلاسيكي، كان هو ضد ذلك تمامًا، ولا يرى له ضرورة، وأنني إذا كنت فعلًا أريد أن أدرس، فإن دراسة اللغات قد تكون أكثر فائدة.

وفي النهاية انتصرت، وعندما أنهيت دراستي المتوسطة كنت واثقة من الانتصار، لكنني كنت مخطئة. بعد أن انتهيت من الدراسة الثانوية، قلت له إنني أريد الالتحاق بجامعة «روما»، وجاء ردُّه قاطعًا: «لن أتكلم في ذلك.» وكما كانت العادة في تلك الأيام انصعت دون كلمة واحدة. لا ينبغي أن يظن المرء أن الانتصار في معركة يشبه تمامًا الانتصار في حرب، ذلك خطأ طفولي. وعندما أفكر في ذلك الآن أشعر بأنني لو كنت قد صممت، لو قاومت بشدة، لكان والدي قد استسلم في النهاية؛ رفضه القاطع كان جزءًا من النظام التربوي في ذلك الزمن. الصغار يُعتبَرون غير مؤهلين لاتخاذ قرارات بأنفسهم. ولذلك عندما يضعون إرادتهم ضد إرادة الآباء، فلا بد أن توضع موضع الاختبار. وعندما استسلمت أمام أول

عقبة، افترضوا أن إرادتي لم تكن تعبيرًا عن رغبة حقيقية صادقة، وإنما نزوة عابرة، الأطفال بالنسبة لأبي، ولأمي أيضًا، مسئولية اجتماعية أولًا وأخيرًا.

كان النمو العقلي والوجداني مهملًا، بينما كانت أقل الأمور أهمية خاضعة لقسوة بالغة. على المائدة كان لا بد أن أجلس مشدودة القامة، مرفقاي ملتصقان بجانبي، حتى وإن كانت أفكاري — كما كان يحدث — تدور حول أفضل طريقة للانتحار؛ المظهر هو كل شيء، أي شيء آخر لا يليق.

ولذا نشأت، ولديَّ إحساس بأنني نوع من القردة، لا بد أن يُدرَّب جيدًا. قردة، أكثر من كوني بشرًا قادرًا على الفرح وخيبة الأمل، وفي حاجة لأن يكون محبوبًا. هذا الحرمان، سرعان ما أيقظ شعورًا شديدًا بالعزلة، وراحت العزلة تتعمق وتتعمق بمرور الزمن. كانت نوعًا من الفراغ ... الخواء ... لا أستطيع أن أتصرف فيه إلا بحركات بطيئة خرقاء مثل الغواص.

هذا الشعور بالعزلة، جاء — أيضًا — بسبب الأسئلة التي كنت أسألها لنفسي، ولم يكن لديَّ إجابات عنها.

في الرابعة أو الخامسة كنت أنظر حولي، وأتساءل: لماذا أنا هنا؟ ومن أين تأتي كل هذه الأشياء الموجودة حولي؟ ماذا وراء كل شيء؟ هل هذه الأشياء موجودة هنا قبل أن أوجد؟ وهل ستظل موجودة إلى الأبد؟

كنت أسأل تلك الأسئلة التي يطرحها الأطفال الحساسون عندما تواجههم تعقيدات الحياة. أعتقد أن الكبار كانوا يسألون الأسئلة ذاتها، وكانوا يستطيعون الإجابة عنها، ولكنني بعد أن جرَّبت أن أسأل أمي أو المربية، مرة أو مرتين، اكتشفت أنهما لا تعرفان الإجابة ... ولا سألتا نفسيهما تلك الأسئلة أبدًا.

وهكذا كما ترين، تعمَّق شعوري بالعزلة، كان عليَّ أن أحل كل مشكلة بنفسي، وكلما كبرتُ كانت الأسئلة تتكاثر، وتكبر ... وتصبح مخيفة أكثر ... وكان مجرد التفكير فيها يصيبني بالرعب. أول مواجهة لي مع الموت جاءت وأنا في السادسة. كان لأبي كلب صيد اسمه «أرجوس»، كان لطيفًا وطيبًا وصديق لعبي. مساءات كاملة أطعمه الطين والحشائش وأتصور نفسي مصففة شعر له، وكان يتحرك في الحديقة دون تذمُّر، والدبابيس تلمع فوق أذنيه. وذات يوم، وكنت أحاول أن أجرب تصفيفة شعر جديدة له، لاحظت ورمًا في رقبته. كان منذ أسابيع قد توقف عن الجري والقفز كعادته، وعندما أجلس في ركن أتناول البسكويت، لم يعد يأتي ليجلس أمامي، ويتنهد على أمل.

عدت من المدرسة ذات يوم، ولم أجده في انتظاري عند الباب، اعتقدت في البداية أنه خرج إلى مكان ما بصحبة والدي، ولكنني عندما رأيت والدي يجلس هادئًا في مكتبه، و«أرجوس» ليس عند قدميه كعادته، كان ذلك نذير شؤم، وتملَّكني فزع شديد مفاجئ.

كنت أجري في أنحاء الحديقة أناديه بأعلى صوت، فتشت كلَّ ركن في البيت. في تلك الليلة، عندما ذهبت لأعطي والدي قبلة الليلة الإجبارية ... استجمعت شجاعتي، وسألت: أين «أرجوس»؟ قال والدي، دون أن يرفع عينيه عن الجريدة: «أرجوس» ذهب! سألته: لماذا؟ قال: لأنه سئم مزاحك!

هل هي عدم لباقة، سطحية، سادية؟ ماذا وراء تلك الإجابة؟ لحظة أن سمعتها انهار داخلي شيء ما.

لم أستطع النوم ليلًا، وبالنهار كان أي شيء بسيط يجعلني أبكي. بعد شهر أو اثنين استدعوا طبيب أطفال، فقرر أن «الطفلة ضعيفة ومرهقة»، ووصف لي «زيت السمك». لماذا لم أنم؟ لماذا كنت أحمل كرة «أرجوس» أينما أذهب؟ لم يسأل أحد أبدًا.

كان ذلك الحادث بداية دخولي عالم الكبار، في سن السادسة؟

نعم في سن السادسة. لو أن «أرجوس» مات لأنني شريرة، فإن سلوكي، إذن، هو الذي يؤثر على ما يحيط بي من أشياء، كان فعلًا يؤثر على الأشياء بأن يجعلها تختفي ... بتدميرها.

منذ تلك اللحظة، لم تعُد تصرفاتي محايدة، لم تكن غايات بحد ذاتها، كنت أخفضها إلى حدها الأدنى خوفًا من ارتكاب خطأ آخر. أصبحت فاترة الشعور، لا مبالية، مترددة! في الليل أمسك كرة «أرجوس» بشدة بين يدي، وأبكي، وأقول: «أرجوس ... أرجوك عُد، حتى لو كنت قد ارتكبت خطأ فإنني أحبك أكثر من أي شيء آخر»، وعندما أحضر والدي كلبًا آخر ... لم أنظر إليه ... كان غريبًا، وصممت أن يظل هكذا.

تربية الأطفال كان يحكمها النفاق، أتذكر جيدًا يومًا بعينه، كنت أسير مع والدي، ورأيت طائرًا صغيرًا ميتًا، أخذته من الأرض دون تردد وأريته له. قال مسرعًا: «دعيه من يدك ... ألا ترين أنه نائم؟»

الموت، كالحب، كان موضوعًا محرمًا. ألم يكن من الأفضل أن يقول لي إن «أرجوس» مات؟ كان يمكن لوالدي أن يضع ذراعيه حولي، ويقول: «كان مريضًا؛ ولذا قتلته لكي أضع نهاية لمعاناته ... وهو أفضل حيث يوجد الآن.»

لا شك أنني كنت سأبكي أكثر، وأحزن عدة أشهر، وأذهب إلى حيث دفنوه، وأتكلم معه بالساعات ... ومع ذلك كنت، شيئًا فشيئًا، سأنساه. كانت أشياء أخرى سوف تشغلني، ويتوارى حبي لأرجوس إلى خلفية الذهن كذكرى من ذكريات الطفولة السعيدة.

هكذا أصبح «أرجوس» موتًا صغيرًا ... ما زلت أحمله في داخلي، ولذلك أقول إنني أصبحت كبيرة في سن السادسة؛ لأن القلق حلَّ محل الفرح، وعدم الاكتراث محل حب الاستطلاع.

هل كان أبي وأمي وحوشًا؟ بالقطع لا، كانا طبيعيين بالنسبة لزمنهما. في شيخوختها فقط بدأت أمي تحكي لي عن طفولتها. كانت صغيرة عندما ماتت أمها، كان أول الأطفال ولدًا مات بالتهاب رئوي في الثالثة، ووُلِدت هي بعده مباشرة، وكانت سيئة الحظ، ليس فقط لأنها «بنت»، وإنما أيضًا لكونها وُلدت في ذكرى موت «الولد». واحتفالًا بتلك المصادفة غير السعيدة ألبسوها لون الحداد قبل أن تُفطَم. كانت لأخيها صورة كبيرة بالزيت معلقة على مهدها، تذكِّرها — كلما فتحت عينيها — بأنها لم تكن سوى «بدل فاقد»! سوى نسخة باهتة من شيء أفضل. هل تتخيلين ذلك؟ كيف يمكن أن نلومها على برودها، على أخطائها، على إصرارها على الابتعاد عن الناس؟

حتى القردة التي يربُّونها في مختبرات التجارب، بمعزل عن الأمهات الحقيقيات، تنشأ حزينة فاقدة إرادة الحياة. ولو حفرنا عميقًا في الماضي لنعرف كيف كانت أمها، وأم أمها، مَن يدريك ماذا سنجد أيضًا؟

التعاسة تنتقل — دائمًا — عن طريق الخط الأنثوي؛ تهبط من الأم لابنتها مثل الخلل الوراثي. ورغم أنه يصبح أقل إلا أنه أكثر اتساعًا وعمقًا. كانت تلك الفترة مختلفة بالنسبة للرجال؛ حيث كانت لهم أعمالهم وحروبهم، وكان لطاقاتهم متنفس. نحن النساء لم يكن لنا شيء من ذلك، جيل بعد جيل كنَّا مقيدات بغرفة النوم والمطبخ والحمام، ووراء آلاف وآلاف الخطوات التي قطعناها، والحركات التي أنجزناها، مررنا بالأحزان نفسها، وبالإحباطات نفسها.

هل أصبحتُ داعية نسوية؟ لا! لا تقلقي، أنا أحاول فقط أن أرى ما وراء ذلك كله بوضوح.

هل تتذكرين كيف كنا نقف على الصخرة، نشاهد الألعاب النارية فوق البحر، في عطلة البنك في شهر أغسطس؟

كنا — من وقت لآخر — نرى صاروخًا، لا يصل إلى السماء، ولكنه ينفجر، ويبعثر نجومه قبل موعده!

حسن! عندما أفكر في حياة أمي وجدتي، وفي حياة كثير من الناس الذين قد عرفت، تقفز إلى ذهني — دائمًا — تلك الصورة: ألعاب نارية تسقط على الأرض بدل أن تحلق في السماء!

٢١ نوفمبر

قرأت مرة في مكان ما، أن «مانزوني» عندما كان يكتب روايته «الخطيبة»، كان يستيقظ كل صباح، متلهفًا للقاء شخصياته. أنا لا أستطيع أن أقول مثل ذلك عن نفسي، رغم طول الوقت الذي مرَّ، إلا أن ذلك لا يجعلني مسرورة عندما أتكلم عن أسرتي، فقد ظلت أمي في ذاكرتي بلا حراك، ظلت عدائية، مثل أحد جنود الانكشارية. هذا الصباح، في محاولة لوضع مياه صافية بيني وبينها، وبين نفسي وذكرياتي، رحت أتمشى حول الحديقة. كان المطر يهطل طوال الليل. السماء الآن صافية في الغرب، لكن غيومًا أرجوانية كانت ما تزال تتجمَّع وراء المنزل. دخلت قبل أن يهطل المطر ثانية. بعد فترة قصيرة هبَّت رياح رعدية، وأصبح الجو مظلمًا في الداخل؛ فاضطررت لإضاءة الأنوار. فصلت كهرباء التليفزيون والثلاجة تجنبًا لخرابهما بسبب البرق، ثم تناولت البطارية الصغيرة، ووضعتها في جيبي، وذهبت إلى المطبخ استعدادًا لجلستنا اليومية.

وبمجرد أن جلستُ شعرت بأنني لم أكن في حالة مزاجية جيدة، ربما كان في الجو تشوش كهربائي كثير ... ولكن أفكاري كانت تصطرع، مثل الشرر؛ لذا قمت أنا و«باك» الجَسور يتبعني، وكنا نتجوَّل في المنزل بلا هدف. دخلت غرفة النوم التي كنت أنام فيها مع جدتك، ثم الغرفة التي أستخدمها هذه الأيام (وكانت غرفة نوم أمك ذات يوم)، ثم غرفة الطعام التي لا نستخدمها منذ فترة طويلة، ثم غرفتك. وأنا أتنقل بين الغرف، تذكرت الانطباع الذي تركه عليَّ المنزل عندما دخلته للمرة الأولى.

لم أكن أنا التي اخترته، وإنما زوجي «أوجستو»، وكان قد اختاره على عجل. كنا في حاجة لمكان نعيش فيه، ولم يكن تأجيل ذلك ممكنًا. منزل واسع بحديقة، ويفي بمتطلباتنا.

منذ لحظة دخولنا من باب الحديقة شعرت أنه خالٍ من الذوق، أو ربما في أسوأ حالات الذوق، الألوان والخطوط كلها متنافرة. من ناحية، كان أشبه بشاليه سويسري،

ومن ناحية أخرى، يشبه منزلًا ألمانيًّا بجوار ترعة بشبَّاكه الدائري الكبير في الوسط وواجهة سطحه المدرجة. النظر إليه من بعيد، وهو يبدو بمداخنه السبع ذات الأشكال المختلفة، يجعلك تعتقدين أنه في ريف «الرايمز». منزل بُني في العشرينيات، ولكن لا شيء فيه من العشرينيات. مرَّت سنوات قبل أن أعتاد أنه منزلي، وأن جدرانه كانت محيط حياتي العائلية.

وأنا في غرفتك، حدثت ومضة برق فوق رأسي مباشرة، وانطفأت الأنوار كلها. بدل أن أضيء البطارية تمددت على الفراش. من الخارج كان يأتي صوت المطر المنهمر والرياح الشديدة، أما في الداخل فكان مزيج أصوات مختلفة؛ صرير، ارتطام مكتوم، صوت خشب يتمدد أو يتقلص، وأنا مستلقية مغمضة العينين، تخيلت المنزل سفينة شراعية كبيرة، سابحة وسط المساحة الخضراء. استمرت العاصفة حتى وقت الغداء تقريبًا، عندما لاحظت من شباك غرفتك أن فرعين كبيرين قد سقطا من شجرة اللوز.

الآن عدت إلى المطبخ، عدت إلى أرض المعركة. أكلت لقمة سريعة، وغسلت الصحون القليلة التي استخدمتها. «باك» نائم تحت قدمي مرهقًا بعد استثارة الصباح. كلما كبر، يصبح خوفه من الرعد والبرق أشد، ولا يعود إلى هدوئه إلا بصعوبة.

في أحد الكتب، التي اشتريتها عندما كنت تذهبين إلى الحضانة، قرأت أن اختيار الأسرة التي يولد فيها الشخص، محكوم بدورة الحياة. يكون لنا ذلك الأب أو تلك الأم تحديدًا، لأنهما، وليس سواهما، هما اللذان سيمكِّناننا أن نفهم شيئًا أكثر، أن نتقدم خطوة واحدة ... صغيرة جدًّا. ولكنني في ذلك الوقت كنت أتساءل: إذا كان الأمر هكذا، كيف إذن تبقى عدة أجيال في حالة ثبات، ولا يحدث أي تقدم؟ ولماذا يحدث التراجع بدل التقدم؟

في الملحق العلمي للجريدة، قرأت مؤخرًا أن التطور قد لا يحدث دائمًا بالطريقة التي نتصورها. وطبقًا لأحدث النظريات، فإن التطور لا يحدث تدريجيًّا. استطالة ساق، أو تغيُّر شكل منقار ليتمكَّن من مصدر غذاء مختلف ويلتقطه، لا يحدث بالمِلِّيمتر، ولا جيلًا بعد جيل؛ قد يحدث فجأة تمامًا. الطفل المولود يمكن أن يأتي مختلفًا تمام الاختلاف عن أمه. ذلك ما تؤكده بقايا هياكل عظام الفك والحوافر والجماجم ذات الأسنان المختلفة. في أجناس بعينها لم توجد أبدًا أشكال وسطى؛ الجد لديه مجموعة سمات، لدى حفيده غيرها، مما يدل على وجود طفرة كبيرة في مدى جيل واحد ... حدثت في غفلة من الزمن. ماذا لو كان ذلك هو الحال أيضًا في التفكير الإنساني؟

التغيرات تتراكم غير ملحوظة ... قليلًا ... قليلًا ... ثم تنفجر فجأة. فجأة يكسر الدائرة شخص ما يريد أن يكون مختلفًا. القدر، الوراثة، التنشئة ... أين تبدأ الواحدة، وتنتهي الأخرى؟ إذا توقفت، وفكرت في ذلك كله للحظة واحدة، يغمرك السر الكبير المخبأ فيها.

قبل أن أتزوج، بوقت قصير، طلبت أخت زوجي (تلك المتصلة بالأرواح) من أحد المنجمين أن يرسم لي برج طالعي. وجاءت ممسكة بالورقة وهي تقول: «ها أنت، وهذا مستقبلك.» كان على الورقة تخطيط هندسي، تتقاطع وتتشابك فيه الخطوط، من كوكب لآخر، مخلفة زوايا مختلفة. أتذكر أنني عندما رأيته، لم أجد فيه أي تناسق أو استمرارية. مجرد قفزات متتالية، وانحرافات حادة تبدو غير متوازنة. وعلى ظهر الورقة كتب المنجم: «طريقك صعب، سوف تحتاجين لأن تتسلحي بكل الفضائل، إن كان لا بد أن تمضي فيه حتى النهاية.»

أزعجني ذلك كثيرًا. حتى تلك اللحظة كانت حياتي رتيبة ومملة. نعم، كانت هناك مشكلات، ولكنها كانت تبدو لي بسيطة، لا أمواج عاتية ... وإنما المويجات المعتادة للمراهقة.

حتى بعد أن كبرت، وأصبحت زوجة وأمًّا وأرملة وجدة، كنت دائمًا متعلقة بتلك الحالة العادية الظاهرية.

الحدث الوحيد الخارج على المألوف — إذا كان يمكن أن نقول ذلك — كان موت أمك المأساوي، وعلى كل حال، فإننا إذا تفحصنا الأمر جيدًا، فسنجد أن خريطة الأبراج تلك لم تكذب. تحت السطح المستوي الصلب والروتين الرتيب لحياتي، حياة الطبقة الوسطى، كانت هناك حركة متواصلة، جلبَتْها تقلبات وصعود وهبوط وتمزقات، ولحظات ظلام مفاجئ وصدوع وفجوات.

كنتُ مغمورة في اليأس طوال حياتي، أشعر بشعور الجندي الذي يحسب الوقت، ولكنه لا يبرح مكانه. الزمن تغير، الناس تغيروا، كل ما حولي تغير، ولكنني لم أتحرك من مكاني أبدًا، أو هكذا كان يبدو لي.

هذه الرتابة، هذه الوتيرية للمسيرة الساكنة، لم يمزقها سوى موت أمك. احترامي لنفسي، الذي لم يكن كبيرًا أبدًا، انهار في لحظة. فكرت ... لو أنني كنت قد استطعت — حتى تلك اللحظة — أن أخطو خطوة أو خطوتين للأمام، لما وقعت للخلف فجأة، ووصلت إلى أعمق نقطة في طريقي. خلال تلك الأيام المرعبة كنت أخاف ألا أقدر أبدًا على المحاولة مرة أخرى، وأن الحد الأدنى من الإدراك الذي استطعت أن أحصل عليه حتى ذلك الحين قد تقوَّض بضربة واحدة، ولحسن الحظ لم أتخبط في تلك الحال الكئيبة طويلًا؛ الحياة استمرت بكل متطلباتها.

أصبحتِ أنت حياتي. عندما جئتِ صغيرة، لا حول لك ولا قوة، ولا أحد لك في العالم غيري، ملأتِ هذا المنزل الصغير الصامت بانفجارات الضحك المفاجئة ... وبدموعك المفاجئة.

أتذكر منظر رأسك الكبير، وأنت طفلة صغيرة، تتأرجح بين الأريكة والطاولة، وأقول: لم ينته كل شيء. الحظ، بكرمه الذي لا يتوقعه أحد، أعطاني قطعة أخرى من الكعكة. الحظ، تلك الكلمة التي قال لي زوج «سينيورا موربورجو» — ذات مرة — أن لا وجود لها في اللغة العبرية. الكلمة الوحيدة التي تدل عليه، أو تشير إلى خاصيته العارضة، وهي «المصادفة» ... كلمة عربية، غريبة! أليس كذلك؟ ولكنه أمر مطمئن.

حيث يوجد الله لا مكان للحظ ... ولا حتى للكلمة البسيطة التي تعبِّر عنه. كل شيء مقدَّر، منظَّم من أعلى، كل شيء يحدث لك له سبب. كنت دائمًا أحسد الذين يعتنقون هذه النظرة للعالم، دون تردد عند الاختيار. بالنسبة لي، وبالرغم من كل محاولاتي، لم أتمكن — أبدًا — من امتلاك تلك النظرة لأكثر من يوم أو يومين في كل مرة. عندما كان يواجهني شيء مرعب، أو ظلم، كنت أتراجع، وبدل أن أبرره مع شعور بالرضا، كنت أشعر بحاجة ملحة لأن أعلن العصيان ... وكان داخلي يغلي. الآن، على أية حال، أوشك أن أفعل شيئًا يعتمد على المصادفة بالفعل ... أن أرسل إليك قبلة. كم تكرهين القبلات! إنها ترتد من على محارتك مثل كرة التنس، لكن لا يهم! سوف أرسلها إليكِ، سواء كنتِ تحبينها أم لا، ولن يمكنك أن تفعلي شيئًا إزاءها؛ لأنها في هذه اللحظة طائرة إليك فوق البحر خفيفة وشفافة.

أنا متعبة وحزينة. أعدت قراءة كل ما كتبت حتى الآن، وأنا قلقة. هل ستفهمين شيئًا منه؟ أفكار كثيرة تزحم عقلي، تتصادم وتتدافع، مثل زبائن الشراء في نهاية موسم الأوكازيون.

لا أستطيع أن أرتب أفكاري، أو أن أتبع خطًّا منطقيًّا من البداية إلى النهاية. وأتصور — أحيانًا — أن ذلك بسبب عدم ذهابي إلى الجامعة. قرأت كتبًا كثيرة، وكنت شغوفة بأشياء كثيرة ... أحيانًا بالصحون، وأحيانًا بالمطبخ، وأحيانًا بالعواطف.

عندما يسير عالِم النبات في الحقل ليقطف الزهور، فهو ينتقي عيِّناته بعمدٍ وتروٍّ، يعرف ما يهمه وما لا يهمه. يختار ويترك، ويقيم علاقة سببية. ولكن الذاهب العابر إلى الحقل لقضاء عطلة، يختار الزهور بأسلوب مختلف؛ واحدة لأنها صفراء، وأخرى لأنها زرقاء، وثالثة لعطرها، ورابعة لأنها — بالمصادفة — كانت قد نمت هنا في الطريق الذي يسير فيه. أعتقد أن علاقتي بالمعرفة كانت هكذا، وكانت أمك دائمًا تلومني لذلك. عندما نتناقش كنت أستسلم بسرعة. كانت تقول: أنت لا تعرفين شيئًا بالمرة عن كيفية بناء

حوار ... مثل كل أبناء الطبقة المتوسطة، لا تعرفين كيف تدافعين عن أفكارك، ومثلما كنتِ أنت أسيرة قلق عنيف مجهول، كانت أمك أسيرة أيديولوجيا عنيفة مجهولة. كانت تؤنِّبني عندما أتكلم عن قضايا صغيرة بدل القضايا الكبيرة. وتقول إنني رجعية، مريضة بأوهام برجوازية. كانت وجهة نظرها أنني غبية؛ ولذا أدمنت الوفرة والترف، وبالطبع نزاعة للشر. كانت جريرتي هي الحياة في منزل مستقل بحديقة، بدل الحياة في مبنى من عدة شقق في ضاحية كئيبة. ذنبي مركَّب، لأنني ورثت دخلًا صغيرًا يوفر لي الأمرين. وفي محاولة لتلافي الأخطاء، التي ارتكبها والداي كنت أستمع إلى ما تقول، أو على الأقل، أبذل جهدًا لكي أفعل ذلك. لم يحدث أبدًا أن سخرت منها، أو جعلتها تدرك أن أفكارها الشمولية كانت غريبة عن أسلوبي في التفكير، رغم أنها لا بد أن تكون قد شعرت بارتيابي، بالدرجة نفسها، في مزاعمها وأفكارها المبتذلة. «إيلاريا» درست في جامعة «بادوا»، كان من الممكن، وبسهولة، أن تذهب إلى «تريستا»، ولكنها لم تكن لتقبل الاستمرار في العيش معي. في كل مرة أفكر في زيارتها؛ يكون الصمت العدائي هو الرد. سارت دراستها ببطء، لم أعرف مع من كانت تعيش، وهي لم تخبرني عن ذلك أبدًا. وحيث إنني كنت أعرف نقاط ضعفها؛ كنت قلقة عليها، وخاصة بعد ثورة الطلبة في باريس، واحتلال الجامعات. عندما كنت أستمع إلى تقارير إذاعية وتليفزيونية عن ذلك، كنت أدرك أن المسافة بيننا كانت تتسع وتتسع. كانت دائمًا متحمسة لشيء ما، وكان ذلك الشيء يتغير باستمرار. حاولتُ أن أفهمها كأي أم، ولكن الأمر كان في غاية الصعوبة. كان كل شيء تشنجيًّا، متقطعًا، سريع الزوال ... أفكار جديدة كثيرة جدًّا ... ومطلقات كثيرة جدًّا، وبدل أن تستخدم كلماتها، كانت تردد شعارًا بعد الآخر. كنت قلقة على حالتها العقلية. الإحساس بأنك جزء من جماعة تشترك في المسلمات نفسها، في الدوجمات نفسها، كان يقوِّي من غطرستها وعنادها الطبيعيين بدرجة مقلقة.

في أثناء عامها السادس بالجامعة، كنت شديدة القلق. بعد صمت طويل غير عادي ركبتُ القطار وذهبت لرؤيتها. لم أكن قد فعلت شيئًا كذلك طوال أيام وجودها في «بادوا». لحظة أن فتحت الباب بدت مروعة، وبدل أن ترحب بي هاجمتني: «من طلب منك المجيء إلى هنا؟»، ودون أن تعطيني فرصة للرد، واصلت هجومها: «كان لا بد أن تخبريني بقدومك، كنت خارجة، لديَّ امتحان مهم هذا الصباح.» وحيث إنها كانت ما تزال في ملابس النوم، بدت تلك كذبة واضحة، ولكنني تظاهرت بعدم الملاحظة، وقلت: «لا يهم، معنى ذلك أنني يمكنني أن أنتظر حتى ترجعي، ثم نحتفل باجتيازك الامتحان معًا.» كل ما فعلَتْه هو أنها خرجت مسرعة، ومندفعة، لدرجة أنها تركت كتبها على الطاولة.

وحيدة في تلك الشقة، فعلتُ ما يمكن أن تفعله أي أم؛ رحت أقلب في الأدراج بحثًا عن أي دليل عن أي شيء، يعينني على فهم الوجهة التي اتخذتها حياتها. لم أقصد أبدًا أن أتجسس عليها، أو أن أكون رقيبة أو فضولية. لم يكن ذلك أبدًا جزءًا من شخصيتي. كنت قلقة، والوسيلة الوحيدة لطمأنة عقلي هي البحث عن نقطة التقاء. باستثناء المنشورات، وكراسات الدعاية الثورية، لم أجد شيئًا، لا رسالة واحدة، لا مذكرات. على جدار غرفة نومها كان هناك ملصق كُتب عليه: «الأسرة كيان وهمي ومثير، مثل غرفة الغاز» ... وكان ذلك مفتاحًا.

عندما عادت في منتصف النهار، كانت تبدو مرهقة تمامًا، كما كانت عندما خرجت. «كيف كان الامتحان؟» سألتها بكل هدوء ممكن. أجابت: «مثل كل الامتحانات.» ثم أضافت: ألهذا السبب جئتِ؟ جئت تفتشين عليَّ. ولكي أتجنب الدخول في جدل، قلت، محاولةً استرضاءها، إنني كانت لديَّ رغبة واحدة، وهي أن نتكلم معًا ... فقط نتكلم معًا.

ردَّت في ارتياب: «نتكلم؟»، ثم «عمَّ نتكلم؟ عن حبك للتصوف؟»

قلت بهدوء: «نتكلم عنك يا «إيلاريا»» وحاولت أن أجعل عيوننا تتلاقى. سارت حتى النافذة، كانت نظرتها مثبتة على صفصافة باكية قاربت على الجفاف. «ليس لديَّ ما أقوله» ثم تحوَّلت نظرتها من الصفصافة إلى ساعة يدها، قائلة: «لقد تأخرت ولديَّ اجتماع مهم. لا بد أن تنصرفي.» لم أرضخ لرغبتها. قمتُ من مقعدي، وبدل أن أتجه صوب الباب، ذهبت إليها، وأخذت يديها في يدي: «ماذا يحدث؟ ماذا يؤلمك؟» سمعت صوت تنفُّسها يتسارع، قلت: «قلبي يوجعني عندما أراك في هذه الحال، حتى إن كنت ترفضينني كأم، أنا لا أرفضك كابنة، أريد أن أساعدك، ولكنك إن لم تلتقيني في منتصف المسافة؛ فلن أستطيع أن أفعل شيئًا.»

وهنا بدأت ذقنها ترتعش، كما كان يحدث لها وهي طفلة، عندما تكون على وشك البكاء. سحبت يديها، واستدارت بحدة نحو ركن الغرفة، كان جسدها الضئيل المنكمش يختلج ببكاء متشنج.

مسدتُ شعرها، رأسها ساخن بقدر ما يداها باردتان، وفجأة استدارت، وألقت ذراعيها حولي، وخبَّأت وجهها على كتفي.

«ماما ... أنا ... أنا ...»

في هذه اللحظة بالتحديد رنَّ التليفون، همستُ في أذنها: «دعيه يرن.» قالت، وهي تجفف عينيها: «لا أستطيع.»

عندما رفعت السماعة، عاد صوتها إلى صلابته وتحفُّظه، ومن الحوار القصير، أدركت أن أمرًا خطيرًا لا بد أن يكون قد حدث، وفعلًا ... بعد أن تركت السماعة، قالت: «أنا متأسفة، لكنك لا بد أن تذهبي الآن.»

خرجنا معًا، وعلى عتبة الباب سمحت لنفسها بضمة سريعة ... كانت تشعر بالذنب. همستْ، وهي تضمني: «لا أحد يمكنه مساعدتي.» ذهبتُ معها إلى حيث كانت قد تركت دراجتها مربوطة بسلسلة في عمود قريب. جلست فوق الدراجة، وضعت إصبعين تحت عقدي، وقالت: «عقد اللؤلؤ! هذا جواز سفرك ... لا يمكنك أبدًا أن تتحركي بدونه منذ يوم ولادتك.»

رغم أن ذلك حدث منذ وقت بعيد جدًّا، إلا أن ذلك الجزء من حياة أمك هو الذي يعود دائمًا ليطاردني من وقت لآخر، ودائمًا أفكر فيه، وأتساءل: لماذا من بين كل علاقتنا المشتركة، يظل هذا الحدث يقظًا في ذاكرتي؟ اليوم، وأنا أفكر فيه للمرة المليون، طرأ على ذهني قول مأثور: «اللسان يتجه دائمًا نحو الضرس الموجوع.» ربما تتساءلين: وما علاقة ذلك؟ إن له علاقة كبيرة. سبب مطاردة هذا الحدث لي باستمرار هو أنها كانت المرة الوحيدة التي كان يمكنني فيها أن أغيِّر الأمور؛ لقد انفجرت أمك باكية، وألقت بذراعيها حولي.

في تلك اللحظة كان شرخ دقيق قد حدث في محارتها، ثغرة صغيرة كان بالإمكان النفاذ منها ... لو أنني نفذت، لفعلت مثلما تفعل المسامير التي تتمدد داخل الحائط؛ تتفلطح وتصنع لنفسها مكانًا. كان يمكن أن أصبح نقطة ثابتة في حياتها، ولكي أفعل ذلك كان يلزمني أعصاب قوية ... جلد وجسارة. عندما قالت إنني لا بد أن أذهب؛ كان لا بد أن أبقى، كان ينبغي أن أستأجر غرفة في فندق قريب، وآتي لأدق بابها كل يوم ... بمثابرة وإصرار، حتى تصبح تلك الثغرة في محارتها ممرًّا أدخل منه إليها.

كانت هناك فرصة أحسست بها، ولكنني لم أفعل؛ الجبن والكسل والشعور الزائف بالتحفظ ... ذلك هو ما جعلني أفعل ما طلبته مني.

كنت أكره تدخُّل أمي في حياتي، وكنت أحاول أن أكون أمًّا مختلفة، وأن أحترم استقلاليتها. إن قناع الحرية يخفي عادة غياب الاهتمام والرغبة في عدم التورط. هناك خط دقيق بين الاثنين، واجتياز الخط أو عدم اجتيازه ... عمل لحظي، قرار قد يتخذه المرء، وقد لا يتخذه. وبعد أن يكون الوقت قد مرَّ يدرك المرء كم كانت تلك اللحظة مهمة. حينذاك فقط تشعرين بالندم، عندما تدركين أن التدخل، وليس الحرية، كان هو المطلوب. كنت هناك، وتعرفين ما يحدث، ومن تلك المعرفة كان لا بد أن ينبع الالتزام بالتصرف.

الحب ليس صديقًا للكسالى؛ لكي يتحقق بكماله، فإنه يتطلب عملًا قويًّا ومحددًا أحيانًا، هل فهمت؟ لقد دفنت جبني وكسلي في ثياب الحرية النبيلة!

الوعي بالقدر لا يتحقق إلا مع العمر. في مثل عمرك، الناس لا يفكرون فيه عادة. نحن ننظر إلى أي شيء وكأنه نابع من إرادتنا. نشعر بشعور العمال الذين يضعون طبقة من الحجر فوق أخرى لكي يمهدوا لنا الطريق الذي نتحرك عليه. بعد ذلك بكثيرٍ، نكتشف أن الطريق هناك، وأن شخصًا آخر قد مهَّده لنا، وأن كل ما علينا هو أن نسير عليه ... ونواصل السير.

نحن نصل عادة إلى هذا الاكتشاف في عمر الأربعين، عندها يبدأ إدراكنا أننا لسنا مسئولين عما يحدث.

إنها لحظة خطيرة، عندما يكون الوقوع في القدرية الخانقة عامًّا؛ لكي نرى تصاريف القدر على حقيقتها لا بد أن تمر سنوات أخرى. في الستين تقريبًا، عندما يكون الطريق خلفنا قد أصبح أطول مما هو أمامنا، ندرك شيئًا لم نكن قد أدركناه أبدًا من قبل، ندرك أن الطريق الذي قطعناه لم يكن مستقيمًا، كان مليئًا بالمنعطفات. عند كل خطوة كان هناك سهم يشير نحو اتجاه آخر ... ممر ضيق يظهر في هذا الجانب، ممر آخر مختفٍ بين الأشجار ... لقد اتجهنا ومشينا في بعض تلك الطرق الجانبية دون أن ندرك ... وهناك طرق ودروب وممرات أخرى لم ندرك أنها كانت موجودة. تلك التي مررنا عليها ولم نلحظها، تؤدي إلى أماكن لا نعرفها، ولا يمكننا أن نعرف إن كانت أفضل أو أسوأ في النهاية، ولكن، رغم عدم معرفتنا، إلا أنها تعتمل في الذهن. كان يمكن أن نفعل شيئًا، ولكننا لم نفعل، سرنا إلى الخلف بدلًا من أن نمضي إلى الأمام. هل تتذكرين لعبة السلم والثعبان؟ هكذا الحياة! وأنت تمرِّين بمنعطفات كثيرة في طريقك، ستواجهين حيوات أخرى، وسواء عرفتِها أم لا، مارستِها حتى النهاية أو تجاهلتِها، فإن ذلك سوف يتوقف في النهاية على اختياراتك اللحظية التي تتخذينها.

حتى وإن كنت غير واعية بذلك، فإن حياتك كلها، وحياة من هم قريبون منك، يمكن أن تتوقف على اختيارك بين مواصلة السير على طريق مستقيمة، أو اتخاذ انعطافة جانبية.

٢٢ نوفمبر

كان هناك تغيُّر في الطقس ليلة أمس؛ الرياح ارتدت جهة الشرق، وكنست معها السحب في ظرف ساعات قليلة. قبل أن أجلس للكتابة، قمت بجولة في الحديقة. كانت الرياح ما زالت تهب بقوة، وتصل إلى ما تحت الثياب، وكان «باك» في حالة بهجة. يريد أن يلعب. فجأة وقف جواري، وفي فمه كوز صنوبر. ولأنني كنت أشعر بالضعف حينذاك، ألقيته إليه مرة واحدة ولمسافة قصيرة، ولكن ذلك جعله سعيدًا.

بعد أن تأكدت من صحة شجرة الورد الخاصة بك، ذهبت لأتكلم مع شجرة اللوز وشجرة الكرز، وهي أشجاري المفضَّلة كما تعلمين. هل تتذكرين كيف كنتِ تسخرين مني عند رؤيتي واقفةً هناك أمسد جذوعها؟ كنت تقولين: «ماذا تفعلين؟ هذه ليست رقبة حصان!» وعندما كنت أقول: إن لمس شجرة لا يختلف عن لمس أي كائن حي آخر، وربما كان أفضل، كنت تهزين كتفيك وتنصرفين في ضيق.

لماذا أفضل؟ لأنني عندما أخمش رأس «باك» مثلًا، أشعر بشيء دافئ ونابض، ولكن وراء ذلك — دائمًا — يكون إحساس مراوغ بالقلق، ربما تكون وجبة الطعام التالية التي تكون وشيكة أو غير وشيكة، ربما يكون الشوق لك أو حتى ذكرى حلم، هل تعرفين قصدي؟ عندما يتعلق الأمر بالكلاب أو البشر، يكون هناك الكثير مما يجب التفكير فيه ... هناك احتياجات كثيرة، سلامهم وسعادتهم يتوقفان على كائنات أخرى غيرهم. في حالة الشجر، الأمر مختلف جدًّا، الشجرة منذ أن تكون نبتة وحتى موتها لا تتحرك من نقطة واحدة. جذورها أقرب من أي شيء آخر إلى قلب الأرض، ورأسها أقرب إلى السماء، النسغ يسري داخلها من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، يتمدد ويتقلص حسب ضوء الشمس، تنتظر المطر، وتنتظر الشمس، تنتظر فصلًا وراء فصل ... تنتظر الموت.

إنها باختصار ... توجد! هل فهمت الآن لماذا يكون مشبِعًا أن تمسدي وتداعبي جذع شجرة؟ لأنها قوية وثابتة، لأنها تتنفس بعمقٍ وإشباع. في موضع ما في الإنجيل، يقال: إن لله فتحتي أنف واسعتين. أعرف أن ذلك قد يبدو شططًا وتطاولًا ... ولكنني في كل مرة أحاول فيها أن أتخيل هيئة الله ... يستحضر عقلي صورة شجرة البلوط. كانت هناك واحدة في حديقة منزلنا عندما كنت طفلة، كان جذعها ضخمًا يعجز رجلان عن تطويقه بأذرعهما. كنت دائمًا أحب أن أكون قريبة منه ... حتى عندما كنت في الرابعة أو الخامسة.

أجلس هناك، أشعر بالعشب الذي تحتي، والهواء المنعش يلعب بشعري، ويلامس وجهي. أتنفس بعمقٍ، وأدرك أن هناك نظامًا علويًّا للأشياء، وأنني، وكل ما حولي، جزء منه. ورغم أنني لم أكن أعرف شيئًا عن الموسيقى، إلا أن شيئًا ما كان يغني في داخلي، لا أستطيع أن أحدد النغم. لم يكن هناك لحن بعينه، هو شيء أشبه بإيقاع قوي ... كأن سمكة ضخمة تتنفس في مكان ما من قلبي ... النبض يسري في كياني كله، ومن عقلي ينبعث نور ... وهو أيضًا موسيقى ... كنت سعيدة أن أكون على قيد الحياة، ولم يكن يعنيني شيء سوى تلك السعادة.

ربما يبدو غريبًا بالنسبة لك، وربما قد يبدو غير طبيعي أن يكون هناك مثل ذلك الإدراك لطفل. لسوء الحظ، نحن اعتدنا أن نعتبر الطفولة فترة عمياء، ناقصة، وليست مرحلة ثراء كبير. ومع ذلك، عندما ننظر جيدًا في عيني طفل حديث الولادة نجد الأمر هكذا. هل حدث أن حاولتِ النظر في عيني طفل حديث الولادة؟ افعلي ذلك إن أتيحت لكِ الفرصة.

انسي تحيزاتك، وراقبي فقط. مجرد مراقبة! كيف تكون النظرة في تلك العيون؟ هل هي فارغة؟ لا واعية؟ أم تراها نظرة قديمة ... بعيدة ... مفكرة؟ لقد منحت الطبيعة الأطفال إدراكًا أوسع وأعمق مما منحته للكبار، نحن الذين فقدناه، ولا نريد أن نعترف بتلك الخسارة. في سن الرابعة أو الخامسة لم أكن أعرف شيئًا عن الدين، ولا عن الله، ولا عن الزوايا الضيقة التي وضع الناس أنفسهم فيها للكلام عن تلك الأمور.

تعرفين! عندما كان عليَّ أن أقرر إن كان لا بد من دراسة مادة الدين في المدرسة أم لا، فكرت في الأمر طويلًا. من ناحية، كنت أتذكر كيف كان تأثير تلك الأفكار الجامدة عليَّ مدمرًا، ومن ناحية أخرى كنت مقتنعة بأن التربية لا ينبغي أن تكون مقصورة على العقل فقط، وإنما يجب أن تشمل الروح أيضًا.

وفي النهاية حلَّت المشكلة نفسها بنفسها يوم مات أول حيوان صغير كنت تلعبين به. أمسكت حيوان «الهمستر» الميت بيدك، ونظرت إليَّ حائرة: أين هو الآن؟ رددت إليك السؤال: «وأين تعتقدين أنه قد ذهب؟»

هل تتذكرين ما قلتِ؟ إنه في مكانين مختلفين، جزء منه هنا، وجزء منه هناك ... فوق ... في السحب. قمنا بدفنه في المساء نفسه مع احتفالية جنائزية بسيطة. وأنتِ راكعة أمام الرابية الصغيرة كنتِ تصلين: «نم سعيدًا يا «تونى»! يومًا ما سنكون معًا مرة أخرى.» ربما لم أقل لك أبدًا إنني قضيت السنوات الخمس الأولى من دراستي في دير مدرسة القلب المقدس. أؤكد لك أن الدمار الذي أصابني من جراء ذلك كان كبيرًا، بسبب عقلي الشغوف المتسائل. كانت الراهبات يضعن مذودًا كبيرًا في مدخل المدرسة على مدار العام، وكان هناك يسوع الطفل مع يوسف ومريم والثور والحمار الصغير، وحولهم تلال ووديان، ونماذج من الورق المعجن لقطيع من الأغنام. كل تلميذة يمثِّلها حَمَل صغير، يضعونها قريبة أو بعيدة من يسوع، بناء على سلوكها طوال اليوم. وكنا كل صباح، ونحن في طريقنا إلى الصفوف، نمرُّ بذلك المكان لترى كلٌّ منا مكانها. وفي الجهة المقابلة لنموذج المذود كانت توجد حفرة عميقة يوضع على حافتها التلاميذ المشاغبون وسيئو السلوك، وأرجلهم تتأرجح في الهواء.

بين السادسة والعاشرة كانت حياتي تسير حسب مكان حَمَلي وتحركاته، قربًا أو بعدًا من يسوع. وربما لا أكون في حاجة لأن أقول إنه نادرًا ما كان يتحرك بعيدًا عن شفا الجرف.

كنت في داخلي أحاول — جاهدة — أن أتبع التعليمات والقواعد، وكان ذلك— في جزء منه — إحساسًا طبيعيًّا بالتواؤم لدى طفل، وفي جزء آخر، شعورًا بأن الإنسان لا بد أن يكون طيبًا ... ألا يكذب أو يكون مغرورًا. وبالرغم من ذلك، كنت دائمًا على وشك السقوط من على الحافة. لماذا؟ لأشياء صغيرة غبية. عندما ذهبت باكية إلى رئيسة الراهبات، وسألتها لماذا أبعدوني مرة أخرى، كانت تقول: «لأنك كنت تضعين في شعرك بالأمس «فيونكة»»، أو «لأن زميلة من زملائك سمعتك تغنين عند الانصراف من المدرسة»، أو «لأنك لم تغسلي يديك قبل الغداء.»

أرأيت؟ وهكذا، مرة أخرى، كانت الأعمال الخاطئة التي أرتكبها خارجية، مثل تلك التي كانت أمي تتهمني بها دائمًا. ما كنت أتعلَّمه لم يكن الانسجام أو التوافق الداخلي، وإنما الامتثال الخارجي.

وذات يوم وأنا أتأرجح على حافة الحفرة العميقة محتجة، انفجرت بالبكاء: «ولكنني أحب يسوع!» هل تعرفين ماذا قالت الراهبة الواقفة جواري؟ «لو كنتِ تحبين يسوع فعلًا لكانت دفاترك أكثر تنظيمًا.» وبحركة سريعة من إصبعها ألقت حَمَلي في الهاوية.

أتذكر أنني لم أستطع أن أنام بعد ذلك الحادث قبل مرور شهرين. كلما أغمضت عيني تحوَّل الفراش تحتي إلى بحر من اللهب، وتصاعدت أصوات من ورائي، تهددني: «انتظري ... سنحضر لنأخذك.» لم أقل شيئًا من ذلك لوالديَّ طبعًا. ولكنهما عندما لاحظا وجهي الشاحب الخائف، ظنَّت أمي أنني كنت مرهقة، وكانت تحرص على إعطائي جرعات الشراب المقوي من وقت لآخر.

أتساءل ... كم من البشر الحساسين الأذكياء أداروا ظهورهم للأمور الروحانية إلى الأبد نتيجة مواقف كهذه! كلما سمعت شخصًا يقول إنه كان مستمتعًا بأيام الدراسة، ويتمنى أن تعود، تصيبني الحيرة.

لقد كانت فترة من أسوأ فترات حياتي، وربما الأسوأ، لأنها تركت فيَّ إحساسًا طاغيًا بالعقم. أثناء سنوات التعليم الأولى كنتُ ممزقة بين الرغبة في أن أكون مؤمنة بما أشعر به داخلي، والرغبة في التسليم بما يؤمن به الآخرون ... حتى وإن كنت أشعر بزيفه.

شيء غريب! ولكنني عندما أستعيد حياة تلك المشاعر، يتكوَّن لديَّ انطباع أن أكبر أزمة في نشأتي ونموي لم تحدث أثناء فترة المراهقة، كما يحدث عادة، وإنما أثناء تلك السنوات الأولى من طفولتي الباكرة. في الثانية عشرة، والثالثة عشرة والرابعة عشرة، كنت قد وصلت إلى شكل حزين من النضج. الأسئلة الميتافيزيقية الكبرى فقدت إلحاحها تدريجيًّا، وحلَّت محلها أوهام وهواجس وخيالات جديدة لا ضرر منها ولا ضرار. كنت أذهب مع أمي إلى الكنيسة أيام الأحد، وفي الأيام المقدسة الإجبارية، ولكنني عندما كنت أركع خاشعة لتناول العشاء الرباني كان عقلي يسرح في أشياء أخرى، ولم يكن ذلك سوى أداء صغير ... ضروري ... من أجل حياة هادئة. لذلك لم أسجل اسمك في دروس الدين، ولم أندم أبدًا على ذلك القرار. وعندما كنتِ، بفضول الأطفال، تسألينني عن هذا الموضوع، كنت أحاول أن أجيبك صراحة ومباشرة قدر الإمكان.

مع احترام الغموض الذي نتحلى به جميعًا! وعندما توقفت أسئلتك قمت أنا بانسحاب تكتيكي، ولم أحاول إثارة الموضوع أبدًا. هي منطقة، الصمتُ فيها من ذهب، وإلا حدث ما يحدث مع الباعة الجائلين، كلما ألحُّوا عليك ببضاعتهم، زادت شكوكك في جودتها. معكِ، كنت أحاول أن أتجنَّب إخماد ما هو موجود، أما بالنسبة للباقي، فكنت أفضِّل الانتظار. ومع ذلك لا يجب أن تتصوري أن طريقي كانت دائمًا ممهدة. رغم أنني كنت في السادسة من العمر، إلا أنني كنت واعية بجوهر الأشياء ... وفي السابعة نسيت كل شيء. نبدأ بالموسيقى، كنت ما زلت أسمعها، خرساء، ولكنها موجودة؛ مجرى مائي ينساب عبر مضيق جبلي

وأسمعه، إذا وقفت ساكنة وأصخت السمع. فيما بعد تغيَّر ماء المجرى، تغيَّر وأصبح راديو قديمًا، راديو على رجليه الأخيرتين، أحيانًا كانت الأغنية تتفجر منه عالية، وأحيانًا يكون صامتًا.

كان أبي وأمي يوبِّخانني دائمًا لأنني أغني باستمرار، ومرة لطمني أبي على وجهي أثناء تناولنا الطعام، المرة الأولى التي أُصفَع فيها في حياتي، وذلك لأنني — دون وعي — كنت أدندن بلحن. قال غاضبًا: «نحن لا نغني على الأكل»، وقالت أمي: «المغنون المحترفون فقط هم المسموح لهم بالغناء»، وقلتُ محتجة: «لكنَّ هناك شيئًا ما يغني في داخلي.» والداي لا يفهمان أبدًا أي شيء ليس له وجود مادي؛ لذا، أية فرصة إذن كان يمكن أن تجعلني أظل متعلقة بالموسيقى؟ لو أنني كنت منذورة للرهبنة، فلربما كنت قد احتفظت بها، ولكن قدري كان أن أكون شخصًا عاديًّا. شيئًا فشيئًا، تلاشت الموسيقى وأصبحت صمتًا، ومعها ذهب الإحساس العميق بالفرح الذي كان يصاحبني في سنواتي الأولى. لا بد أن أقول إن فقدان الفرح هو أكثر ما حزنت عليه، أكثر من أي شيء آخر.

بعد ذلك، كنت أشعر أحيانًا بالسعادة، ولكن السعادة ليست سوى مصباح كهربائي، إن نحن قارناه بشمس الفرح. هناك دائمًا شيء ما يسبِّب السعادة. أنت سعيدة لشيء، السعادة شعور يأتي من الخارج، أما الفرح فلا يسبِّبه شيء. الفرح يتملكك دون سبب واضح، مثل الشمس التي تمنح الحرارة بفضل الاحتراق الداخلي لجوهرها الخاص.

بمرور السنوات كنت أتجنَّب نفسي، أتجنَّب الجزء الأعمق مني لكي أصبح شخصًا آخر ... الشخص الذي يريده والداي. استبدلت شخصيتي بنموذج، والنموذج — كما ستكتشفين — يقدَّر تقديرًا أعلى من الشخصية. النموذج والشخصية على عكس ما تعتقدين، ليسا الشيء نفسه، والحقيقة أن أحدهما يقصي الآخر في معظم الأحوال. أمي مثلًا، كانت نموذجًا قويًّا، كانت واثقة من نفسها في كل ما تفعل، ولم يكن أي شيء، مهما كان، يمكن أن يهز تلك الثقة، أما أنا فكنت على العكس منها تمامًا. لم يكن هناك شيء في الحياة اليومية يحقق لي بهجة. عندما يكون مطلوبًا أن أتخذ قرارًا، كنت أتردد أو أؤجل ذلك طويلًا، لدرجة أن يفقد من حولي صبرهم، ثم يتخذون هم القرار نيابة عني.

لا تتصوري أن تنحية شخصيتي، وتبني نموذج مصطنع كان أمرًا يسيرًا عليَّ، كان في العمق مني شيء ما يواصل تمرُّده، كان جزء مني يريد أن يواصل ليكون أنا، بينما الجزء الآخر — لكي يكون محبوبًا — كان يريد أن يتوافق، ويتواءم مع توقعات الآخرين، يا لها من معركة مضنية! كنت أمقت أمي بسبب أسلوبها السطحي الأجوف، كنت أمقتها،

ورغم ذلك بدأت أشبهها، ببطء وعلى غير رغبتي، وذلك ثمن باهظ للتربية، ومرعب، ثمن من المستحيل تقريبًا تجنُّب دفعه. لا يمكن أن يعيش طفل دون حب؛ لذا نحاول أن نتوافق مع المثال الذي يُقدَّم لنا، حتى وإن كنا نكرهه، ونعتقد أنه ليس صحيحًا. ولا يختفي أثر تلك الظاهرة حتى عندما نكبر. بمجرد أن تصبحي أُمًّا يظهر على السطح، دون إدراك أو إرادة، ويعيد تشكيل أفعالك.

عندما أنجبتُ أمك، كنت مقتنعةً بأنني سوف أتصرف بشكل مختلف، والحقيقة أنني فعلت. ولكي أتجنَّب أن أفرض مثالًا أو نموذجًا على أمك كما حدث معي، تركتها لخياراتها. كنت أريدها أن تشعر بأنني راضية عن كل ما تفعله، وكنت أقول لها دائمًا: «نحن شخصان مختلفان، يمكن أن يحترم كلانا الآخر، حتى عندما نتفق على أن نكون مختلفين.»

وكان هناك خطأ في ذلك، خطأ بالغ، هل تعرفين ما هو؟ عدم وجود ثقة في نفسي، غيبة الهوية. ورغم أنني كنت كبيرة، لم أكن واثقة من شيء، لم يكن لديَّ حب لنفسي ولا احترام. وأمك، بحساسية الأطفال الانتهازية الماكرة، لاحظت ذلك بسرعة؛ اكتشفت جبني، عدم شعوري بالأمان، ضعف شخصيتي. عندما أفكر في علاقتنا فإن الصورة التي تقفز إلى ذهني هي صورة النبات المتسلق. الشجرة قديمة وأكثر ارتفاعًا، وموجودة منذ وقت طويل وجذورها أعمق. النبات المتسلق الذي نما تحت قدميها شبَّ في فصل واحد، له نهايات دقيقة، ومخالب يتعلق بها، أكثر مما له جذور. وتحت كل نهاية دقيقة توجد ماصات دقيقة، يتعلق بها في لحاء الشجرة، وفي ظرف عام أو عامين يصل إلى قمتها. وبينما يغيِّر المضيف أوراقه يظل المتسلق أخضر اللون. يواصل الانتشار، وتنبت له جذور هوائية أكثر فأكثر ... حتى تصبح الشجرة مغطاة تمامًا، ويصبح النبات المتسلق وحده هو الذي يستطيع الوصول إلى ضوء الشمس والماء، حينئذٍ تجف الشجرة وتموت، ويبقى الجذع الميت جوعًا، مجرد دعامة للنبات المتسلق.

بعد موتها المأساوي مرَّت سنوات وأنا لا أفكر فيها. أحيانًا، كان يبدو لي أنني نسيتها، وأتهم نفسي بقسوة القلب.

صحيح أنكِ كنتِ معي لكي أرعاكِ، ولكنني لا أعتقد أن ذلك كان السبب الحقيقي، ربما كان جزءًا. كان إحساسي بالهزيمة قويًّا ومؤلمًا، ولا أريد أن أعترف به. في السنوات القليلة الأخيرة فقط، وأنت تكبرين بعيدًا عني، وتبدئين الانطلاق في مدارك الخاص، رحت أفكر في أمك مجددًا ... لدرجة الهوس. ندمي الأكبر، هو أنني لم أكن شجاعة بما يكفي لكي أتصدى لها، لأقول لها إنها كانت مخطئة، أو إنها كانت ستفعل شيئًا غبيًّا. كنت أسمعها

تجيء بشعارات خطرة جدًّا، وكان يجب — لصالحها — أن أعارضها، ولكنني كنت أفشل في التدخل. لم تكن حالة تراخٍ أو كسل. كانت الموضوعات التي نناقشها ذات أهمية حيوية؛ كان توجه أمي هو الذي يحدد تصرفاتي. لكي أكون محبوبة، كان لا بد أن أتجنب النزاع، وأن أتظاهر بأشياء لا أكونها. و«إيلاريا» كانت بطبيعتها مستبدة ومتعجرفة. كانت شخصيتها أقوى من شخصيتي، وكنت أخشى الخلافات الواضحة. لو كنت أحبها حقًّا لغضبت، ولكنت حازمة معها، ولصممتُ على أن تفعل أو لا تفعل أشياء بعينها. ربما كان ذلك ما تريده فعلًا، أو ما كانت تحتاج إليه.

أتعجب وأتساءل … لماذا الحقائق البسيطة هي الأصعب دائمًا على الفهم؟ لو أنني فهمت — آنذاك — أن المتطلبات الأولى للحب هي القوة، فلربما كانت الأحداث قد اتخذت وجهة مختلفة. ولكن … لكي تكوني قوية لا بد أن يكون لديك احترام لنفسك، ولكي يكون لديك احترام لنفسك، لا بد أن تكون لديك المعرفة بنفسك … لا بد أن تعرفي نفسك من الداخل، حتى الأشياء الأكثر غموضًا، تلك التي من الصعب قبولها! كيف يمكن أن يحقق المرء ذلك، بينما الحياة، بصخبها واستعجالها، تسحب المرء، وتجرُّه جرًّا؟ ذوو المواهب الخاصة فقط قد يحاولون ذلك، أما العاديون مثلي، ومثل أمك، فليس لديهم خيار سوى الرضا بالمصير الذي يجرف القش وزجاجات البلاستيك التي تذروها الرياح أو يرميها شخص ما في البحر.

أنتِ طافية على السطح بفضل المادة التي صُنِعت منها … لم تغرقي … وتعتبرين ذلك انتصارًا، وعلى الفور تبدئين السفر. تنزلقين بهدوء مع التيار، ومن وقت لآخر تجدين نفسك محجوزة أمام مجموعة جذور أو صخور، تقفين فترة لتضربك المياه، ثم يرتفع المستوى فتطفين مرة أخرى، وتكملين طريقك.

عندما يكون الماء منسابًا بسلاسة؛ أنت على السطح، وعندما يزيد، بسبب المنحدرات، تهبطين تحته، لا تعرفين وجهتك، ولا أنت فكرت في ذلك. وعبر المسافات الأكثر هدوءًا يمكنك مراقبة المنظر الطبيعي، الشواطئ، الأشجار، تبصرين ألوانًا وأشكالًا أكثر من التفاصيل، تتحركين أسرع فتبصرين أكثر … ثم عندما ينقضي الوقت والأميال تصبح الشواطئ أكثر انخفاضًا والبحر أوسع مدى … ما زلت في قناة … ولكن ليس لوقتٍ طويل. وتتساءلين: إلى أين أنا ذاهبة؟ في هذه اللحظة تبصرين المحيط أمامك … كانت معظم حياتي هكذا! كنت أضرب الموج حولي، أكثر مما أسبح. بحركات غير واثقة، غير متسقة، دون متعة أو فرح، استطعت أن أظل طافية.

لماذا أقول لك ذلك كله؟ ما مغزى كل تلك الاعترافات الطويلة الحميمة شديدة الخصوصية؟ ربما تكونين قد سئمتِ الآن، وتنفخين ضجرًا وأنت تقلبين الصفحات، وتتساءلين: ماذا تريد أن تقول؟ وأين تريدني أن أكون؟ أنا فعلًا أفقد توجهي، وبدلًا من متابعة طريق مستقيمة، أدخل مسارات جانبية ومنعطفات بإرادتي. أعطي الانطباع بأنني تهت، ضللت الطريق … وربما ليس انطباعًا بالمرة … أنا قد تهت بالفعل، ولكن تلك هي الطريق التي لا بد من المضي فيها، للوصول إلى ما تبحثين عنه بشغفٍ؛ الوصول إلى المركز.

هل تتذكرين كيف كنت أعلِّمك عمل «البان كيك»؟ عندما قلت لك وأنت تقذفين بها في الهواء لكي تقلبيها: فكري في أي شيء آخر سوى أن تستقبليها بدقة في المقلاة، إذا فكرت فيها كثيرًا وهي في الهواء، ثقي أنها ستسقط كومة، متجعدة. ربما بدا لك ذلك شيئًا مجنونًا، ولكن صرف الانتباه بالفعل هو سر الوصول إلى جوهر الأشياء … إلى مركزها … إلى قلب القلب.

لا أشعر الآن بقلبي كما أشعر بمعدتي … فهي تقرقر، وهذا صحيح أيضًا. رحلة البحر، والبان كيك، ووقت العشاء قد حان، والآن لا بد أن أتوقف، ولكن قبل ذلك لا بد أن أرسل إليكِ قبلة أخرى من القبلات التي تكرهين!

٢٩ نوفمبر

تسبَّبت رياح الأمس القوية في سقوط ضحية، كما اكتشفت هذا الصباح في جولتي المعتادة في الحديقة. لا بد أن ملاكي الحارس كان يحميني، لأنني بدل أن أسير حول المنزل كما أفعل، عادة، ذهبت حتى آخر المكان، المكان الذي كان يوجد به الدجاج دائمًا، والذي يوجد فيه الآن كوم السماد.

وعندما كنت أسير بالضبط، بجوار السور الذي يفصل بين حديقتنا وحديقة «والتر»، لاحظت وجود شيء أسود على الأرض. كان يمكن أن يكون كوز أناناس، ولكنه كان يتحرك على فترات غير منتظمة. ولأنني كنت قد خرجت دون نظارتي الطبية، فلم أتبين أنه كان طائرًا أسود صغيرًا إلا عندما كنت أمامه تمامًا. أنثى شحرور، كادت رجلي أن تُكسَر، وأنا أحاول الإمساك به، لأنه كان يرفرف، ويفز كلما حاولت الاقتراب منه. لو كنت أصغر سنًّا لتمكَّنت من الإمساك به في أقل من الثانية ... حركتي الآن بطيئة! وأخيرًا جاءتني فكرة فجأة، خلعت غطاء رأسي، وألقيته على الطائر، ثم حملت الصرة إلى داخل المنزل، ووضعت الكائن الصغير في صندوق حذاء قديم، بطَّنته بمزق من القماش، وخرمت الغطاء تاركة فيه فتحة تسمح له بخروج رأسه منها.

الطائر أمامي الآن على الطاولة، وأنا أكتب، ولكنني لم أضع له شيئًا ليأكله لأنه خائف ومضطرب. رؤية طائر مضطرب تصيبني بالتوتر، والخوف الذي ألمحه في عينيه يصيبني بالقلق. لو جاءت الآن جنيَّة، وظهرت وسط ومضة برق بين الثلاجة وموقد الغاز، هل تعرفين ماذا يمكن أن أطلب منها؟ خاتم سليمان. الخاتم السحري الذي يجعلني قادرة على الكلام مع أي طائر أو حيوان في العالم. حينئذٍ يمكن أن أقول لهذا الشحرور: «لا تخف يا صديقي، قد أكون إنسانًا، ولكن نيَّتي طيبة. سوف أرعاك وأطعمك، وعندما تتحسن صحتك سأطلقك حرًّا.»

لكن، دعينا نعود للكلام عنا. بالأمس افترقنا في المطبخ، بعد حكايتي المنزلية الرمزية عن عمل «البان كيك». لا بد أن تكون قد أزعجتكِ. الصغار يتصورون دائمًا أن الموضوعات الجادة تحتاج كلمات جادة ... كبيرة وطنانة. قبل رحيلك بوقتٍ قصيرٍ، تركتِ لي رسالة تحت الوسادة، حاولتِ أن تشرحي فيها مشكلاتك.

الآن، وأنتِ بعيدة يمكن أن أعترف — بصرف النظر عن حالة انزعاجك — أنني لم أفهم كلمة واحدة منها. كل ما بها كان ملتفًّا وغامضًا. أنا إنسانة بسيطة، أنتمي إلى زمن مختلف عن زمنك تمامًا، أقول للأعور في وجهه: أنت أعور.

المشكلات يمكن حلُّها فقط على ضوء تجربة الحياة اليومية، من رؤية الأشياء كما هي، وليس كما يظن شخص آخر كيف يجب أن تكون. بمجرد أن نلقي وراء ظهورنا ما لا يخصنا، ما يأتي من خارجنا، نكون على الطريق الصحيحة. كان لديَّ — دائمًا — انطباع بأن الكتب التي تقرئينها تربكك أكثر مما تنير عقلك، وأنها تترك سحابة سوداء حولك، مثل الحبر الذي يفرزه حيوان الحبَّار عندما يهرب من عدو مفترس.

قبل أن تقرري الرحيل، عرضت عليَّ خيارًا: إما أن أدعك تذهبين لمدة عام، أو أن أرسلك إلى طبيب نفساني. وكان ردِّي حاسمًا ولا مساومة فيه. هل تتذكرين؟ يمكنكِ أن تذهبي لمدة ثلاث سنوات إن أردتِ، ولكنكِ لن تذهبي إلى طبيب نفساني، ولا مرة واحدة! لن أسمح بذلك، حتى لو تحمَّلتِ أنت التكلفة؛ فاجأك هذا الرد المتطرف وأذهلك.

حقيقة الأمر، هي أنك كنت تعتقدين أنك تعرضين عليَّ أهون الشرين. ورغم أنك لم تتكلمي كثيرًا، إلا أنني تصورت أنك كنت متأكدة أنني طاعنة في السن، وربما غير مدركة، ولا يمكنني أن أفهم مثل تلك الأمور. كنتِ مخطئة. حتى وأنا طفلة كنت أسمع الناس يتكلمون عن «فرويد». كان أحد أشقاء والدي طبيبًا، درس في «فيينا»، وكان على دراية بنظرياته منذ وقت باكر، وكان متحمسًا لها، ويحاول أن يقنع والدي بجدواها، كلما كان يأتي للعشاء. وكانت أمي ترد بسخرية: «لن تقنعني بأنني إذا حلمت بالإسباكتي أكون خائفة من الموت! إذا حلمت بالإسباكتي فمعنى ذلك أنني جائعة ... ولا أكثر.» وكان عمي يحاول، دون جدوى، أن يقنعها بأن مقاومتها العنيدة ترجع لجهلها بنظرية «فرويد» عن الإزاحة، وأن خوفها من الموت لا شك فيه، لأن الإسباكتي والديدان هما الشيء نفسه، والديدان هي المصير الذي سنصل إليه حتمًا كلنا ذات يوم. هل تعرفين ماذا قالت أمي؟ بعد فترة صمت قصيرة، قالت بصوتها السوبرانو العالي: «وماذا إذن لو حلمت بالمكرونة العادية؟»

على أية حال، مواجهاتي مع تلك التحليلات النفسية ليست مقصورة على مرحلة الطفولة تلك، أمك كانت تتردد على محلل نفساني — هكذا يقال — لمدة عشر سنوات تقريبًا. وظلت تذهب إليه حتى موتها؛ ولذا كان يمكن أن ألاحظ كل تطورات العلاقة يومًا بعد يوم. الحقيقة أنها في البداية لم تقل لي شيئًا عن ذلك. وكما تعرفين، فإن أشياء كتلك تعتبر أسرارًا مهنية. ما صدمني في الحال، وبطريقة سلبية، هو إحساس الاعتماد والاتكال الفوري. بعد شهر على الأكثر، أصبحت حياتها كلها تدور حول تلك المواعيد وما يدور فيها. ربما كان يمكن أن يدخل ذلك في الاعتبار، ولكنه لم يكن أبدًا العامل الرئيس. ما أحزنني هو رؤيتي لها وهي في حالة استسلام وتبعية تامة لمؤثر آخر مسيطر.

في البداية كانت السياسة، والآن هذا الرجل.

كانت «إيلاريا» قد تعرَّفت عليه في آخر عام لها في «بادوا»، وكان عليها أن تذهب إلى هناك كل أسبوع. عندما أخبرتني بذلك النشاط الجديد كنت حائرة في البداية، وسألتها إن كان من الضروري فعلًا أن تقطع كل تلك المسافة من أجل طبيب مناسب؟!

من ناحية، كان قرارها أن تلتمس استشارة طبية لحالتها الاكتئابية مصدر راحة لي؛ فأنا أعتقد أن طلب المساعدة — في حد ذاته — خطوة على الطريق الصحيحة، إلا أنني من ناحية أخرى، وحيث إنني كنت أعرف ضعفها، كنت خائفة من اختيارها للشخص الذي تثق به. التعامل مع عقل شخص آخر أمر بالغ الدقة.

سألتها: كيف وجدته؟ هل رشَّحه أحد لك؟

ولكنها هزَّت كتفيها، وقالت: «لن تفهمي.» ثم صمتت تمامًا. ورغم أن كلينا كان يعيش في منزل مستقل في «تريستا»، إلا أننا كنا نلتقي مرة في الأسبوع — على الأقل — لتناول الطعام معًا. منذ بدأت علاجها النفسي كانت أحاديثنا على الطعام سطحية تمامًا وعابرة ... عن عمد، كنا نتكلم عما يحدث في المدينة ... عن الطقس ... تقريبًا كنا نأكل ونحن صامتون. بعد زيارتها الثالثة أو الرابعة لـ «بادوا» لاحظتُ تغيُّرًا. وبدل الصمت المخيم بيننا، أصبحت هي التي تسأل. كانت تريد أن تعرف كل شيء عن الماضي، عني، عن أبيها، عن علاقتنا. لم يكن في أسئلتها حبٌّ ولا فضول. كنت أشعر أنني في جلسة تحقيق، تسأل الأسئلة نفسها عدة مرات، وتصر على معرفة التفاصيل الدقيقة، وتلقي بشكِّها على الأحداث التي تكون جزءًا منها، والتي كانت تتذكرها جيدًا.

في تلك الأوقات، كنت أشعر أنني لا أتكلم مع ابنتي، بل مع ضابط شرطة يحاول — بشتى الطرق — أن يجعلني أعترف بجريمة ما.

وبعد أن نفد صبري ذات يوم، قلت لها: «كوني أمينة معي ... ما الذي تحاولين الوصول إليه بالضبط؟»

نظرت إليَّ بسخرية، أمسكت بشوكة، وراحت تدق بها على الكوب، وبينما كان صوت الزجاج يئز، قالت: «أريد شيئًا واحدًا ... الحقيقة! أريد أن أعرف متى، ولماذا قصصت أجنحتي أنت وزوجك؟»

وكانت تلك آخر مرة أترك نفسي فيها عرضة لمثل ذلك الوابل من الأسئلة. في الأسبوع التالي بالتحديد، عندما اتصلت بها قلت: «أهلًا وسهلًا بك على الغداء، لكن بشرط واحد، بدل الاستجواب فليكن بيننا حوار.»

هل هو «كعب أخيل»؟ فعلًا! إذ بالرغم من وجود أشياء كثيرة أستمتع بمناقشتها مع «إيلاريا»، إلا أنني كنت أعتقد أنه ليس من الصواب، ولا من المفيد أن أكشف عن تلك الأمور تحت ضغط الاستجواب. لو أنني واصلت لعبتها، لما دخلنا في علاقة كبار أخرى، كان لا بد أن أكون — وإلى الأبد — مجرد طرف مذنب، وستكون هي الضحية — إلى الأبد أيضًا — مع عدم وجود أية إمكانية للتغير نحو الأفضل.

بعد عدة أشهر، تكلمت معها مرة أخرى عن علاجها. كانت الآن مشغولة بجلسات مع طبيبها، تستغرق، كلٌّ منها، عطلة نهاية الأسبوع كلها. فقدت كثيرًا من وزنها، وكانت هناك بوادر هستيريا في كلامها، لم أكن قد سمعتها من قبل. كلَّمتها عن عمها الكبير، عن خبراته الأولى بالتحليل النفسي، وسألتها، وكأن الأمر ليس له أهمية: «إلى أية مدرسة ينتمي طبيبك؟» قالت: «لا ينتمي إلى أية مدرسة ... أو ربما ينتمي إلى مدرسة هو مؤسسها.»

منذ تلك اللحظة، ما كان اهتمامًا بسيطًا أصبح مدعاة للقلق الشديد. تمكنت من معرفة اسم الطبيب المعالِج، وأفادتني بعض التحريات أنه لم يكن يحمل أية مؤهلات طبية بالمرة. وتبددت فجأة الآمال التي كنت أعلقها على أثر العلاج النفسي. لم يكن وجود مؤهلات علمية بالطبع هو الذي جعلني أرتاب، وإنما — أيضًا — ذلك التدهور المطرد في حالة «إيلاريا». كنت أقول لنفسي «لو أن ذلك كان برنامجًا للعلاج ... لظهر تحسن بطيء.» بعد فترة، ورغم شكوكي، كان لا بد أن يبرز وعي جديد محسوس، كانت «إيلاريا»، بدل ذلك كله، قد بدأت تفقد اهتمامها بكل شيء حولها. كانت قد أنهت دراستها قبل ذلك بعشر سنوات، ولكنها لا تعمل شيئًا. فَقَدت صلتها بالعدد القليل من الأصدقاء الذين كانت تعرفهم، وكان شاغلها الوحيد هو عمليات عقلها، مع اهتمام شديد لدرجة الهوس. كان العالم كله يدور حول حلم تكون قد رأته في الليلة الماضية، أو عبارة قلتُها أو قالها أبوها، منذ عشرين عامًا، وعندما كنت أرى تدهور حياتها، على هذا النحو، كنت أشعر بالعجز.

بعد ثلاث سنوات في الصيف ... ظهر بصيص أمل استمر أسابيع قليلة. اقترحتُ أن نذهب في إجازة — معًا — بعد عيد القيامة، ولدهشتي لم ترفض الفكرة، رفعت بصرها عن الطعام، ونظرت إليَّ وسألتني: «إلى أين؟» قلت: «لا أعرف! أي مكان تريدين ... أو إلى أي مكان يعجبك!»

وجلسنا ننتظر — على أحر من الجمر — حتى تفتح وكالات السفر أبوابها بعد الظهر. ترددنا عليها عدة أسابيع، نحاول أن نجد مكانًا نحب أن نراه. وفي النهاية، استقر الأمر على اليونان — كريت وسانتوريني — في نهاية شهر مايو. التحضير للرحلة قرَّبنا من بعضنا أكثر من ذي قبل. كانت مهتمة جدًّا بحزم الحقائب، وتخشى أن ننسى شيئًا مهمًّا، ولكي أخفف من قلقها؛ اشتريت مفكرة صغيرة، وطلبت منها أن تكتب قائمة بالأشياء التي تحتاجها، ثم تشطب ما تضعه منها في الحقيبة.

في ذلك المساء، وأنا أستعد للنوم، أنَّبت نفسي كثيرًا ... كيف لم أدرك من قبل، أن الخروج معًا في رحلة يمكن أن يكون من أفضل الوسائل لترميم علاقتنا؟

بعد ذلك، في يوم الجمعة السابق على مغادرتنا، اتصلت بي تليفونيًّا. كان صوتها قاسيًا، أعتقد أنها كانت تتكلم من كابينة تليفون في الشارع، قالت: «لا بد أن أذهب إلى «بادوا»، وسوف أعود مساء الخميس على الأكثر.»

سألتها: «هل من الضروري أن تذهبي فعلًا؟»، لكنها كانت قد وضعت السماعة. لم أسمع منها شيئًا حتى الخميس التالي، عندما رنَّ التليفون في الساعة الثانية. كان في صوتها مزيج حدة وشعور بالندم، قالت: «أنا آسفة! لن أذهب إلى اليونان.» انتظرَتْ رد فعلي، وأنا انتظرتُ أن تكمل. وبعد لحظات قلت: «وأنا أيضًا آسفة ... جدًّا ... ولكنني سأذهب على أية حال.» فهمَتْ وشعرَتْ بخيبة أملي، وحاولَتْ أن تبدي أعذارًا، ثم قالت هامسةً: «لو أنني ذهبت، فسيكون فقط لكي أهرب من نفسي.» وكما تتخيلين ... كانت إجازة تعسة. كنت أجبر نفسي على الاستماع للمرشدين، وأن أبدي اهتمامًا بالمناظر الطبيعية والمواقع الأثرية، ولكنني كنت — طوال الوقت— أفكر في أمك، وأتساءل إلى أين تأخذها الحياة؟ قلت لنفسي: إن «إيلاريا» مثل البستاني الذي زرع بذوره، وشاهد بزوغ النبتات الأولى فتملَّكه الخوف من أن يصيبها ضرر ما، ولكي يحميها من الرياح والأمطار اشترى غطاءً رقيقًا من البلاستيك، وغطَّاها به. ولكي يطرد عنها الذباب والحشرات، راح يرشها بجرعات ثقيلة من المبيدات، وعليه أن يعمل بلا توقف. لا تمر لحظة — ليلًا أو نهارًا — إلا ويفكر فيها، وفي كيفية وقايتها. وذات صباح، يرفع الغطاء البلاستيكي فيكتشف فجأة أنها — للأسف — قد تعفنت، وماتت ... كلها!

لو تركها تنمو بحرية لمات بعضها، لكن البعض الآخر كان سيبقى بالتأكيد. وبفضل الرياح والحشرات كانت بذور أخرى ستنبت إلى جوار تلك التي بذرها، بعضها حشائش عليه أن يقتلعها، ولكن غيرها سيصبح زهورًا، تبعث البهجة في حديقة أي منزل.

هل رأيت ما أريد أن أصل إليه؟ هكذا الأشياء؛ الحياة تتطلب محبة وسماحة.

إذا زرعنا شخصيتنا الخاصة الصغيرة، بمعزل عما يحيط بنا من أشياء؛ فقد نواصل التنفس، لكننا نكون في الحقيقة موتى.

وبفرضها الصرامة الشديدة والقسوة الزائدة على عقلها، قمعت «إيلاريا» صوت قلبها. تلك الكلمة التي كنت أستخدمها وأنا خائفة أرتعد نتيجة لمناقشاتنا. مرة، عندما كانت في سن المراهقة، قلت لها: «القلب هو مولد الطاقة للروح.» في الصباح التالي، وجدت القاموس مفتوحًا على طاولة المطبخ على كلمة «الروح»، وتحت التعريف خط بالأحمر: «سائل عديم اللون يُستخدَم لحفظ الفاكهة.»

كلمة «قلب»، أصبحت هذه الأيام مرتبطة بأشياء ساذجة، وأحيانًا فجة. وأنا صغيرة، كان الواحد منا يمكن أن يستخدم الكلمة دون حرج، والآن لا أحد يستخدمها بالمرة. وفي المرات النادرة التي تسمع فيها كلمة «قلب» تكون للإشارة إلى قصور في الأداء ... ولا يقصدون الكلمة بمعناها الكامل، وإنما فقط الحالة الصحية. لا أحد يلمح لدور القلب كجوهر للروح الإنساني، وكثيرًا ما كنت أتساءل عن سبب هذا النفي. كان «أوجستو» يردد دائمًا عبارة من الإنجيل: «من يحتكم إلى قلبه جاهل»، فلماذا بالله يمكن أن يكون هكذا؟ هل لأن القلب يشبه غرفة الاحتراق الداخلي؟ لأن هناك ظلامًا ... ظلامًا ونارًا؟ العقل حديث، كما أن القلب قديم، والذين يستمعون إلى قلوبهم — كما يعتقد الناس هذه الأيام — أقرب إلى الحيوانات، إلى المجانين، بينما أولئك الذين يستمعون إلى صوت العقل هم الأقرب إلى الأشياء الأسمى. لكن لنفترض أن ذلك ليس هكذا، وأن العكس تمامًا هو الصحيح ... فهل يستطيع المزيد من الاستدلال المنطقي أن يفقر حياتنا؟

على السفينة العائدة من اليونان، كنت أقضي جانبًا من الوقت كل صباح قرب منصة الربان. كنت أستمتع بالتحديق فيها ورؤية الرادار والأجهزة المعقدة التي ترشدنا وتحدد اتجاهنا. وذات يوم، وأنا أراقب تحركات الهوائي في الرياح، خطرت إلى ذهني فكرة؛ أن الناس، شيئًا فشيئًا، قد أصبحوا مثل أجهزة الراديو التي تعمل على تردد واحد فقط. مثل تلك الأجهزة الصغيرة التي تُوزَّع للدعاية؛ كل المحطات مبينة على المؤشر، ولكن تحريك الزر يبعث صوتًا من واحدة أو اثنتين، بينما الأخريات يهمهمن في الأثير لا يسمعها أحد.

أنا أرى أن كثرة استخدام العقل تُحدِث الأثر نفسه: من كل الحقيقة المحيطة بنا، نحن لا نلتقط إلا قدرًا محدودًا، حتى ذلك القدر مرتبك ومشوش لأنه مكدس بكلمات، والكلمات غالبًا ما توصلنا إلى دوائر أكثر مما هي إلى فضاء مفتوح. الفهم يتطلب الصمت. عندما كنتُ شابة، لم أكن أفهم ذلك، ولكنني أفهمه الآن، حيث أجد نفسي أتخبط في البيت لغير ما غاية، أتجول وحيدة ... صامتة ... كسمكة من أسماك الزينة في وعاء. أمر يشبه كنس أرضية قذرة بمقشة، أو مسحها بقطعة قماش مبللة، إن استخدمت المقشة فسوف يرتفع قدر من الغبار في الجو، ويعود ليستقر فوق المكان مرة أخرى، لكنك إذا استخدمت القماشة المبللة فستصبح الأرضية نظيفة لامعة. الصمت مثل القماشة المبللة: يزيل طبقة الغبار تمامًا. الكلمات تسجن العقل، ولو كان لها إيقاع ... أي نوع من الإيقاع، فإنه إيقاع الأفكار المفككة. من الناحية الأخرى نجد القلب أكثر اطمئنانًا واسترخاءً، هو العضو الوحيد الذي ينبض، ونبضه يضعنا في تناغم مع النبض الأكبر.

يحدث أحيانًا أن أترك جهاز التليفزيون مفتوحًا طوال المساء — وغالبًا بسبب شرود الذهن — رغم أنني لا أشاهده، إلا أنني أسمعه في أي مكان في المنزل. عندما يحين وقت النوم أصبح أكثر توترًا عن أي وقت، وأجد صعوبة لكي أنام. الضوضاء المستمرة، والضجيج نوع من المخدر، وبمجرد الاعتياد على ذلك يصبح من الصعب الإقلاع عنه. لا أريد أن أضيف كثيرًا الآن، الصفحات التي كتبتها جعلتني أفكر في صنع كعكة باستخدام وصفات مختلفة، تحتوي على تشكيلة طائشة من اللوز وجبن الكريم والزبيب والروم وعجينة إسفنجية وزلال البيض والشوكولاتة والفراولة، التي جعلتِني أجرِّبها ذات يوم، وأنت تقولين إنها «المطبخ الحديث»، لخبطة؟ ربما!

لو قرأها فيلسوف، أتخيله غير قادر على أن يمنع نفسه من وضع علامات حمراء على كل شيء في القائمة، كما كان يفعل المدرسون في السابق. وسيكتب «متنافرة ... غير دقيقة ... لا ترابط منطقيًّا». تخيلي، ماذا يمكن أن يقول عنها أي محلل نفساني! سيكتب مقالًا كاملًا عن فشل العلاقات مع ابنتي، وعن كل ما تجنَّبت فعله أو قوله. حتى ولو كنت قد تجنبت بعض الأشياء ... فهل تظل مهمة؟ كانت لديَّ ابنة وفقدتها ... ماتت في حادث سيارة.

في ذلك اليوم تحديدًا، كنت قد قلت لها إن الأب الذي جعل حياتها تعسة — كما تقول — لم يكن أباها الحقيقي.

أستطيع أن أتذكر كل لحظة من ذلك اليوم، بوضوحٍ شديدٍ، كأنني أشاهد فيلمًا سينمائيًّا، باستثناء أن الفيلم مثبت على الجدار بدل أن يكون من خلال جهاز عرض.

أحفظ تتابع المناظر عن ظهر قلب، وتفاصيل كل منظر. لم أنس شيئًا؛ كل شيء في داخلي، ينبض في عقلي، في الصحو والنوم؛ وسيظل ينبض بعد موتي.

الشحرور الصغير صحا، وها هو يمد رأسه من خلال الفتحة في غطاء الصندوق، ويسقسق، من وقت إلى آخر، على فترات منتظمة ... وبإصرار شديد ... كأنه يقول: «أنا جائع ... لماذا لا تطعمينني؟»

الآن قمت، وذهبت إلى الثلاجة لعلِّي أجد شيئًا مناسبًا. لم أجد، ولذا اتصلت بـ «والتر» أسأله إن كان لديه بعض الدود يحضره لي، وبينما أدير قرص التليفون، قلت للشحرور: «أنت لا تعرف كم أنت محظوظ أن خرجت من البيضة، ونسيت بعد أول طيران لك، كيف كان والداك.»

٣٠ نوفمبر

هذا الصباح، قبل التاسعة بقليلٍ، جاء «والتر» وزوجته بكيس صغير به طعام للطائر. دود الدقيق الذي يستخدمه ابن عمهما في الصيد. وبمساعدة «والتر»، رفعت الطائر — برفق — من الصندوق، كان القلب الصغير يدق بجنون، تحت زغب الصدر الناعم. حملت الديدان من الصحن بملقط معدني، ولوَّحت بها أمام منقار الطائر، ولكنه لم يأبه. اقترح «والتر» أن نفتح منقاره، بأية وسيلة، ولكن أعصابي لم تتحمل. وعندما تذكرت كل الطيور الصغيرة التي كنت أسمعها أنا وأمي، تذكرت كيف كنا نمسد ظهورها، وبمجرد أن فعلت ذلك، انفتح المنقار، كما لو كنت قد ضغطت على زنبرك.

بعد ثلاث ديدان شبع. أعدَّت لنا «سنيورة رازمان» بعض القهوة، الأمر الذي لم أكن أستطيع القيام به — منذ ضعف ذراعي — وجلسنا نتحدث لفترة. كان يمكن أن تكون حياتي أكثر صعوبة في الأيام الأخيرة، لولا طيبة أولئك الناس ومساعدتهم لي. ينويان القيام بزيارة للمشتل بعد أيام قليلة لشراء بعض الأبصال والبذور للربيع القادم، وطلبا أن أذهب معهما، فقلت إنني سوف أفكر وأرد عليهما، في التاسعة من صباح الغد.

كنا في الثامن من شهر مايو، وكنت أعمل في الحديقة طوال الصباح. شجرة الفل مزهرة، أما شجرة الكرز فكانت ما تزال مغطاة بالبراعم، ودون توقع ظهرت أمك ساعة الغداء. سارت خلفي صامتة، ثم هتفت: مفاجأة! مفاجأة! كانت فعلًا مفاجأة لي أن أسمع صوتها، فوقعت من يدي الأداة التي كنت أسوي بها التربة.

الحماس والابتهاج الصاخب المتكلف، كان يكذبهما تعبير وجهها الشاحب، وشفتاها المزمومتان. كانت تحرك يدها في شعرها باستمرار، وهي تتكلم، وتبعده عن وجهها وتشدُّه بقوة، وهي تضع بعض أطرافه في فمها.

كانت تلك عادتها منذ فترة ما، ولذا لم أكن منزعجة أو قلقة دون داع ... على الأقل ليس أكثر من المعتاد. سألتها أين ابنتك؟ قالت إنها تركتك تلعبين في منزل صديقة لها. ونحن نسير نحو المنزل، جذبت باقة ذابلة من زهور «أذن الفأر»، وهي تقول: اليوم عيد الأم ... ووقفت، كأنها مزروعة في الأرض. أخذت أنا المبادرة فتقدمتُ نحوها، حضنتها وقبَّلتها وشكرتها. كان إحساسي بجسدها، وهو لصق جسدي، صدمة قاسية لي؛ كان فيه جفاء مروع، وعندما عانقتها كان أكثر تصلبًا. تملَّكني شعور بأنه أجوف، وأن برودة تنبعث منه مثل الكهف. أتذكر ذلك، بوضوحٍ شديدٍ، لدرجة أنني فكرت فيك في الحال، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي ... ماذا سيحدث لتلك الطفلة مع أم تم اختزالها إلى هذه الحال؟ كان الموقف يزداد سوءًا، وكنت قلقة بشأنكِ ... بشأن نشأتكِ!

كانت أمك مستحوذة عليك، ونادرًا ما تحضرك معها لزيارتي. تريد أن تحميك من تأثيري السيئ، فقد أفسدتُ حياتها، ولم يكن مسموحًا بأن أفسد حياتك أنت أيضًا.

كان وقت الغداء. بعد العناق السريع، دخلت إلى المطبخ لإعداد بعض الطعام. ولأن الطقس كان معتدلًا وضعنا الطاولة في الخارج، تحت تعريشة ست الحسن. فردتُ المفرش المربعات الأخضر في الأبيض، ووضعت بعض زهور «أذن الفأر» في مزهرية صغيرة وسط الطاولة. أرأيت؟ أنا أتذكر كل شيء بوضوحٍ، رغم ذاكرتي التي لم يعد يعتمد عليها. هل كان لديَّ شعور مسبق بأن تلك كانت آخر مرة أراها فيها؟ أم تُرى كانت ذاكرتي تخدعني، منذ المأساة، بتجميل الحقيقة عن ذلك الوقت الذي قضيناه معًا؟

من يعرف؟ ليس أنا على أية حال!

لم يكن لديَّ طعام جاهز، لذا قمت بإعداد حساء الطماطم، ثم سألتها: «أي نوع من المكرونة تريدين؟» فردَّت عليَّ من الحديقة: «أي شيء!» ونحن جالستان، سألتها عنك، وكانت تتهرب من الإجابة. كان الهواء من حولنا مليئًا بالحشرات، التي تنتقل بين الزهور، وتُحدث طنينًا عاليًا، وكان من الصعب أن تسمع كلانا الأخرى أحيانًا. وفجأة سقط شيء أسود اللون في صحن أمك، فصرختْ: «دبور! دبور! اقتليه! اقتليه!» انحنيت لأرى، فوجدتها نحلة طنانة، فقلت لها: «ليست دبورًا، إنها نحلة طنانة ... وهي ليست مؤذية». وبعد أن أزحتها من الصحن، غرفت لها المكرونة.

جلست ثانية، وهي ما زالت خائفة، أخذتْ الشوكة، وراحت تقلبها عدة مرات، وتنقلها من يد إلى أخرى، ثم وضعت مرفقيها على الطاولة، وقالت: «أنا في حاجة لبعض النقود!» كانت هناك بقعة حمراء على مفرش الطاولة، حيث وقعت المكرونة.

كان موضوع النقود مطروحًا منذ أشهر، حتى من قبل «الكريسماس» في العام الماضي؛ كانت «إيلاريا» قد اعترفت بأنها قد وقَّعت بعض الأوراق لصالح طبيبها المعالج، وعندما طلبت منها إيضاحًا تهربت من أسئلتي كعادتها. قالت: «مجرد ضمان ... إجراء شكلي ليس إلا.» كان ذلك هو أسلوبها دائمًا في إكراهي على الأشياء. عندما يكون لديها شيء تريد أن تقوله لي لا تقول إلا نصفه دائمًا. أفرغت قلقها فيَّ، وبعد أن فعلت ذلك، رفضت أن تقول شيئًا حقيقيًّا يمكن أن يجعلني أساعدها. كانت هناك سادية خبيثة في ذلك كله، وحاجة حارقة لتكون موضوعًا للقلق، وكان من عادتها أن تجرب ذلك. قالت مرة على سبيل المثال: «أنا مصابة بسرطان المبيض»، وبعد تقصٍّ سريع مجهد، اكتشفت أنها كانت قد ذهبت لإجراء فحص روتيني؛ الفحص العادي الذي تقوم به أية امرأة. أرأيت؟ كانت مثل الولد الذي صرخ مستغيثًا: الذئب! الذئب!

على مدى السنوات القليلة الأخيرة كانت تحكي لي عن مآسٍ كثيرة وشيكة، وفي النهاية لم أعد أصدقها، أو على الأقل أصبحت لا آخذها على محمل الجد. لذلك عندما قالت لي عن توقيع تلك الأوراق للطبيب لم أصدقها. لم أهتم كثيرًا، ولم أصر على طلب مزيد من التفاصيل، وبصرف النظر عن أي شيء آخر، كنت قد سئمت ألعابها المضجرة، حتى لو كنت قد صممت، ولو عرفت بذلك من قبل، لما كان بإمكاني أن أفعل شيئًا؛ فقد كانت قد وقَّعت على الأوراق قبل ذلك دون استشارتي ... وقضي الأمر.

الأزمة الحقيقية جاءت في آخر فبراير، عندما عرفت، لأول مرة، أن الوثائق التي وقَّعتها «إيلاريا» تضمن الطبيب بمبلغ ثلاثمائة مليون ليرة، أمام أحد البنوك. وعندما عجز الطبيب عن الوفاء بالدين وطالبها البنك بالسداد، جاءتني أمك باكية تسألني ماذا تفعل.

أما الضمان فكان المنزل الذي كنتما تعيشان فيه، لك أن تتصوري حجم غضبي وثورتي! على مدى أكثر من ثلاثين عامًا لم تكن أمك قادرة على إعالة نفسها، ليس هذا فقط، وها هي تغامر بالشيء الوحيد الذي تمتلكه، وهو الشقة التي كتبتُها باسمها عندما وُلِدت. كان غيظي شديدًا، ولكنني لم أجعلها ترى ذلك، ولتجنب مزيد من الضغط عليها، تظاهرت بالهدوء وقلت: دعينا نرى ما يمكن فعله!

وحيث إنها انسحبت إلى حالة اللامبالاة التامة، رحت أنا أبحث عن محامٍ جيد، وعلى طريقة الشرطة السرية، جمعت كل المعلومات التي يمكن أن تقوي موقفنا عند التعامل مع البنك. وهكذا توصَّلت إلى حقيقة أن طبيبها، على مدى سنوات، كان يعطيها عقَّارًا قويًّا. عندما كان يجدها مكتئبة أثناء الجلسات، يقدم لها الويسكي، وكان يكرر دائمًا أنها

تلميذته المفضَّلة، والأكثر موهبة، وأنها ستصبح — قريبًا — في وضعٍ يمكِّنها من إنشاء عيادتها الخاصة لعلاج الآخرين.

عندما أكرر هذه الكلمات يقشعر بدني كله!

تخيلي! «إيلاريا»، بضعفها وارتباكها، وفقدان هويتها ... تعالج الآخرين! لو لم تحل بنا تلك الكارثة المالية، لحدث ذلك بكل تأكيد، وكانت ستشرع في هذا العمل دون أن تخبرني.

وهي — طبعًا — لم تجرؤ أبدًا على أن تقول لي شيئًا عن مشروعاتها بوضوح. عندما كنت أسألها لماذا لا تستفيد من شهادتها في الأدب؟ كانت ترد عليَّ بابتسامة الواثقين: سوف أستفيد منها ... وسوف ترين!

هناك أشياء، التفكير فيها مؤلم، والكلام عنها أكثر إيلامًا. خلال تلك الأشهر المأساوية عرفت عنها شيئًا آخر، شيئًا لم يخطر ببالي قبل ذلك أبدًا ... لا أعرف ... هل أقوله لك أم لا؟ على أية حال، أنا قد قررت ألا أخفي عنك شيئًا ... ولذلك ... لقد تأكد لي فجأة أن ذكاء أمك كان محدودًا جدًّا. لقد كلَّفني ذلك جهدًا كبيرًا لاكتشافه ... ولأن أقبله، لأننا نخدع — دائمًا — أنفسنا بخصوص أطفالنا، وأيضًا، لأنها استطاعت أن تسحب الغطاء على عيني بنجاح، بتظاهرها بالمعرفة وذلاقة لسانها. لو كانت لديَّ الشجاعة على مواجهة ذلك باكرًا، فلربما كنت قد استطعت أن أحميها على نحو أفضل، ولكنت أكثر حزمًا في حبي لها. لم يكن هناك شيء أكثر حسمًا من ذلك، إلا أنني عندما عرفت ذلك لم يكن هناك ما يمكن أن أفعله.

بالنظر إلى الموقف ككل، كان هناك شيء واحد فقط يمكن أن أتخذه، وهو أن أعلن عدم أهليتها لرعاية شئونها الخاصة، وأن أبدأ دعوى قضائية ضد استغلال ذلك. عندما قلت لها إنني قد قررت، أنا والمحامي، أن نفعل ذلك أصابتها هستيريا! «إنك تفعلين ذلك بقصد ... إنها مؤامرة لكي تأخذي الطفلة مني!» ولكنني كنت واثقة أن الفكرة التي كانت راسخة في ذهنها، هي أن إعلانها فاقدة للأهلية سيضع نهاية لكل مشروعاتها.

كانت تتأرجح معصوبة العينين على شفا كارثة، وتتصور أنها تتنزَّه بين الحقول. بعد الأزمة طلبت مني أن أطرد المحامي، وألا أتدخل في حياتها أكثر من ذلك. استشارت هي محاميًا آخر، بمبادرة منها، ولم أسمع منها شيئًا، إلى أن كان يوم جاءتني بزهور «أذن الفأر»؛ لك أن تتصوري كيف كان شعوري عندما وضعت مرفقيها على الطاولة، وطلبت نقودًا.

نعم! أنا يعجبني أن أتكلم عن أمك، وربما لا تسمعين شيئًا سوى قسوة باردة في كلماتي، وتعتقدين أنها كانت لديها أسباب كافية لكي تكرهني. ولكن ... تذكري ما قلته لك في البداية — أمك كانت ابنتي — أنا خسرت أكثر مما خسرت أنت! أنت بريئة من مصيرها، أما أنا فلا! إذا كنت — أحيانًا — تعتقدين أنني بعيدة ومنفصلة، فحاولي أن تتصوري عمق حزني، ذلك العمق الأكبر من كل الكلمات. هذا الابتعاد ظاهري فقط ... بُعدي يعطيني المساحة التي تمكِّنني من الكلام عن هذه الأشياء ... عندما طلبت مني أمك أن أسدد ديونها، قلت: «لا» لأول مرة في حياتي ... «لا» ... قاطعة! قلت: «أنا لست البنك السويسري ... ولا أملك مبلغًا كهذا ... وحتى لو كنت أملكه فلن أعطيه لك ... أنت كبيرة بما فيه الكفاية لكي تكوني مسئولة عن تصرفاتك ... كان هذا العقار ملكًا لي، وأعطيته لك ... كونك قد فقدتِه لا يعنيني.»

وهنا بدأت تتذمر ... وتنشج ... تبدأ جملة ولا تكملها ... ثم تبدأ أخرى. لم يكن للكلمات ولا للجمل المفككة أي معنى أو منطق. بعد ذلك النشيج عادت إلى فكرتها الوهمية الراسخة! أبوها ومعاملته السيئة المزعومة لها ... وهي أنه — في الأساس — لم يولها اهتمامًا كافيًا ... صرخت في وجهي: «أريد تعويضًا! ألا تفهمين؟!» وكانت عيناها تلمعان على نحو مرعب.

لا أعرف كيف انفجرتُ، السر الذي كنت قد أقسمت أن أحمله معي إلى القبر، خرج إلى شفتي. وبمجرد أن خرجت الكلمات كنت أريد أن أعيدها إلى الداخل، كان بودِّي أن أبتلعها مهما كان الأمر ... لكن الوقت كان قد فات. عبارة «أبوك لم يكن أباك الحقيقي» كانت قد وصلت إلى أذنيها. ازداد وجهها شحوبًا، قامت على قدميها ببطء، وعيناها لا تغادران عيني ... وهمَسَتْ: «ماذا قلتِ؟»، كان صوتها غير مسموع تقريبًا.

الغريب، والغريب جدًّا أنني كنت قد عدت لهدوئي. قلت: «ما سمعتِه صحيح! قلتُ ... إن زوجي لم يكن أباك.»

رد فعل إيلاريا؟ كل ما فعلته هو أن انصرفت، استدارت كالإنسان الآلي، وسارت نحو باب الحديقة. صحت من خلفها، بصوت كان يبدو صارخًا مرعبًا «انتظري ... دعينا نتكلم عن ذلك.» لماذا لم أقم؟ لماذا لم أركض وراءها؟ لماذا لم أفعل شيئًا بالمرة لكي أوقفها؟ لأنني أيضًا كنت قد تحجرت بالكلمات التي لفظتها، حاولي أن تفهمي. السر الذي احتفظت به، وتشبثت به، وتكتمت عليه، عدة سنوات، فرَّ مني فجأة، رغمًا عني. وفي أقل من لحظة، مثل عصفور كناري وجد باب قفصه مفتوحًا، طار، ووصل إلى الشخص الذي ما كان يجب أن يصل إليه أبدًا.

بعد ظهر اليوم نفسه، في الساعة السادسة، وبينما كنت أروي نبات «ست الحسن»، وكنت مضطربة، جاءت دورية من شرطة المرور لتخبرني بوقوع الحادث.

نحن الآن في وقت متأخر من المساء، كان لا بد أن أتوقف لبعض الوقت. وضعت الطعام لـ «باك» وللطائر الأسود. تناولت عشائي، وشاهدت التليفزيون لوقت قصير. محارتي محطمة لدرجة لا تسمح بتحمُّل انفعالات قوية لوقت طويل؛ لا بد أن أنتزع نفسي، وألتقط أنفاسي قبل أن أكمل.

وكما تعرفين، أمك لم تمت مباشرة، عشرة أيام وهي بين الحياة والموت.

لم أتركها — أبدًا — أثناء تلك الفترة، وكان كل أملي أن تفتح عينيها للحظة على الأقل، أن تعطيني فرصة واحدة أخيرة لأطلب منها أن تسامحني. كنا وحدنا في غرفة مزدحمة بالأجهزة، شاشة صغيرة تؤكد أن قلبها ما زال ينبض، وأخرى تقول إن المخ قد مات. الطبيب المشرف عليها قال: إن المرضى في تلك الحالة، يمكن أن يفيدوا من صوت يحبونه، ولذا تمكنت من إحضار شريط مسجل عليه أغنية كانت تحبها وهي طفلة، كنت أديره لها بالساعات على جهاز تسجيل صغير بائس. لا بد أنها قد سمعت شيئًا؛ إذ بعد أنغام قليلة بدا الاسترخاء على وجهها، وتحركت شفتاها مثل طفل رضيع انتهى من مص ثدي أمه؛ كانت تشبه ابتسامة رضا. من يدري؟ ربما ذكرى وقت هادئ كانت كامنة في ذلك الجزء الباقي من المخ ... وكانت تجد الراحة هناك. هذا التغير اللحظي ملأني بالفرح. الإنسان يتعلق بقشة في موقف كهذا، لم أتوقف عن تمسيد رأسها، وأنا أكرر وأكرر «يا حبيبتي ... لا بد أن تتعافي ... أمامنا حياة طويلة نعيشها معًا ... سنبدأ من جديد، ونتناول الأشياء بشكل مختلف.» وبينما كنت أتكلم برزت إلى ذهني صورة. كانت في الرابعة أو الخامسة، وكنت أراها تسير في أرجاء الحديقة حاملة دميتها المفضلة بذراع واحدة، وتكلمها دون توقف. وكنت أنا في المطبخ؛ لذا لم أسمعها وهي تضحك ... كانت ضحكة من القلب، كانت سعيدة ... مرة ... ويمكن أن تكون سعيدة مرة أخرى ... هذا ما كنت أقوله لنفسي، لكي تولد مرة أخرى، فلا بد أن نبدأ من هذه النقطة ... من تلك الطفلة.

وبالطبع، كان أول ما قال الأطباء لي بعد الحادث هو أنه، حتى لو لم تمُت، فلن تكون كما كانت أبدًا؛ ستصاب بالشلل أو بعجز عقلي. هل أقول لك شيئًا؟ بكل أنانية الأم، كان أهم شيء عندي هو أن تظل على قيد الحياة، مهما كان. أن أدفعها أمامي على كرسي متحرك، أحمِّمها، أطعمها، أجعل رعايتها هدف حياتي، يمكن أن يكون ذلك كله أفضل وسيلة للتكفير عن ذنبي.

لو كان حبي حقيقيًّا، لو كنت أحببتها من قلبي، لكنت قد صليت لكي تموت. وفي النهاية، شخص ما أثبت أنه كان يحبها أكثر مني. بعد ظهيرة اليوم التاسع، اختفت الابتسامة الضئيلة من على شفتيها ... وفارقت الحياة. أدركت ما حدث فورًا، ولكنني لم أخبر الممرضة في الحال؛ لكي أبقى معها وقتًا أطول قليلًا. مسدت وجهها، ضغطت على يديها، كما كنت أفعل وهي طفلة، وواصلت همسي لها: «حبيبتي ... يا حبيبتي»، ودون أن أترك يدها، ركعت بجوار السرير، وبدأت أصلي ... وتدفقت دموعي.

عندما ربتت الممرضة على كتفي كنت ما زلت أبكي. قالت: «تعالي معي لأعطيك مهدئًا»، رفضت المهدئ. لم أكن أريد أن يخفف شيئًا من حزني. بقيت هناك حتى أخذوها إلى المشرحة. أخذت سيارة أجرة إلى منزل صديقتي التي كانت ترعاكِ، وفي المساء نفسه كنتِ معي في المنزل.

سألتِني، ونحن نتناول العشاء: «أين مامي؟»

قلت: «ماما ذهبت في رحلة ... رحلة طويلة إلى السماء.»

أنت واصلت الأكل، رأسك الأشقر الكبير منكفئ على الطعام. وبمجرد أن انتهيت سألتني متجهمة: «هل يمكن أن نلوح لها يا جدتي؟»

«بالطبع يا حبيبتي!»، وحملتك، وخرجنا إلى الحديقة.

وقفنا على العشب بعض الوقت ... وكنتِ تلوحين بيدك الصغيرة للنجوم.

١ ديسمبر

أشعر هذه الأيام بأني منحرفة المزاج، لا يوجد سبب معين لذلك، ولكن ... هكذا حال الجسد. له تشققاته، توازناته الداخلية ... ويمكن لأي شيء تافه أن يخرجه عن انتظامه. صباح الأمس، عندما أحضرت لي سنيورا «رازمان» احتياجاتي من السوق، ورأت كيف كنت مكتئبة، قالت: ربما كان لذلك علاقة بالقمر: ليلة الأمس كان القمر بدرًا، وإذا كان القمر يمكن أن يؤثر على حركة المد والجزر، ويجعل نبات الفجل ينمو أسرع في الحقول، فلماذا لا يكون له أثر على مزاجنا أيضًا؟ وهل نحن سوى ماء وغاز ومعادن؟ على أية حال، قبل أن تنصرف تركت لي مجموعة من المجلات القديمة التافهة، قضيت يومًا كاملًا أقلب صفحاتها. وفي كل مرة كنت أجدني مشدودة إليها. عندما أمسك بواحدة منها أقول في البداية إنني سوف أتصفحها لمدة نصف ساعة مثلًا ثم أذهب لإنجاز شيء ... ثم أجدني أندمج معها، ولا أتركها قبل أن أقرأها كلمة كلمة. الحياة الحزينة لأميرة موناكو تجعلني حزينة، علاقات الحب الشائعة لشقيقتها تجعلني غاضبة، كل حكاية عاطفية، تُروى بتفاصيلها، تجعل قلبي يدق بسرعة! ثم تلك الرسائل، لا أملك أن أمنع نفسي من الدهشة أمام ما يكتبه الناس. لست ضيقة الأفق، ولا أعتقد أنني مختلفة، ولكنني لا أنكر أن الصراحة المطلقة تحيرني بعض الشيء.

الجو اليوم أكثر برودة؛ لم أقم بجولتي المعتادة في الحديقة خشية الرياح الباردة. كما أن البرد الذي أشعر به في داخلي يجعل عظامي تطقطق مثل غصن جاف في الصقيع. أتساءل ... ولست أدري إن كنتِ ما زلتِ تقرئين خطبتي الطويلة هذه، أو ربما، لأنك الآن تعرفينني على نحو أفضل، تشعرين بالنفور، ولا تستطيعين إكمال قراءتها.

الشعور بإلحاح الأمر المستحوذ عليَّ، لن يسمح بإخفاء شيء من الحقيقة؛ لذا لا أستطيع أن أتوقف الآن، أو أن أنتقل إلى شيء آخر.

ورغم أنني احتفظت بهذا السر لمدة سنوات، إلا أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك طويلًا. عندما كنتِ في حيرة؛ لأنه ليست لك هوية، أخبرتك كيف يمكن أن تبدئي، وشعرت أنا أيضًا بحيرة مماثلة، وربما أكبر. أعرف أن إحساسك بالهوية — أو ربما عدم وجودها — كان مرتبطًا بحقيقة أنك كنتِ تجهلين من هو أبوك! كان من الطبيعي أن أخبرك أين ذهبت أمك على هذا النحو المأساوي، ولكن عندما قمتِ باستجوابي عن أبيك لم أستطع أن أعطيك إجابة. كيف كان يمكن؟ ليس لديَّ أية فكرة عمن كان!

ذات صيف، ذهبت «إيلاريا» إلى تركيا بمفردها لقضاء إجازة طويلة، وعندما عادت كانت حاملًا. كانت فوق الثلاثين، وفي ذلك العمر يمكن أن تقع النساء، اللواتي ليس لديهن أطفال، تحت هواجس غريبة؛ يردن طفلًا بأي ثمن، كيف؟ ومع من؟ ليس مهمًّا.

بالإضافة إلى ذلك، فإن معظم النساء — في ذلك الوقت — كنَّ من أنصار الحركة النسوية، وكانت أمك، ومجموعة من صديقاتها، قد كوَّنَّ جمعية لذلك. كثير من أفكارهن كان يبدو صحيحًا، كانت هناك أفكار شاركتهن فيها، لكن تشعبَتْ بينها مفاهيم غير طبيعية وغير صحية وشائهة.

أحد هذه المفاهيم، أن المرأة هي الحكم الوحيد في كل ما يحدث لجسدها، وحدها هي التي تقرر إن كان لا بد أن تنجب طفلًا أم لا، أما الرجل فليس سوى احتياج بيولوجي، ويجب أن يُعامَل على هذا الأساس. لم تكن أمك وحدها في ذلك، اثنتان أو ثلاث من صديقاتها أنجبن أطفالًا في ظروف مشابهة.

الواحد منا يمكن أن يفهم ذلك إلى حد ما: القدرة على الإنجاب تخلع على المرء إحساسًا بالقدرة المطلقة؛ الموت، الظلام، عدم الثقة ... كل ذلك يتراجع عندما تدخلين جزءًا منك إلى هذا العالم، وتلك المعجزة تجعل كل شيء آخر لا علاقة له بالمسألة.

ولكي يدعمن قناعاتهن، كانت أمك وصديقاتها يشرن إلى الحيوانات، يقلن إن «الأنثى لا تلتقي بالذكر إلا لحظة الجماع، بعد ذلك تتفرق بينهما السبل، ويبقى المولود مع الأم.» لا أستطيع أن أؤكد إن كان ذلك صحيحًا أم لا، ولكنني أعرف أننا بشر، وأن كلًّا منا يُولَد بوجه فريد، لا مثيل له، يحمله معه طيلة حياته. الظبي يولد بخطم وفكي ظبي، الأسد أسدًا، كل واحد مطابق لبقية أفراد نوعه. في الطبيعة الملامح لا تتغير، بينما الإنسان والإنسان فقط، له وجه! وجه، أتفهمين؟ الوجه يقول كل شيء. يحمل تاريخك فيه، أباك، أمك، أجدادك، أجداد أجدادك، وربما يحمل أيضًا عمًّا قديمًا لم يعُد يتذكره أحد. وخلف الوجه توجد الشخصية، الأشياء، الحسنة وغير الحسنة، التي ترثينها عن أسلافك. الوجه

هو بيتنا الأول، يجعلنا قادرين على أن نجد مكاننا في الحياة، يعلن ها أنا ذا! هذا أنا! لذلك عندما كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وبدأت تقضين الساعات في كل مرة، وأنت تنظرين إلى نفسك في المرآة، كنت أعرف إلى ماذا تنظرين! كنتِ، بالطبع، تنظرين إلى حب الشباب، وإلى أنف خرج فجأة عن حجمه ... ولكن كانت هناك إلى جانب ذلك أشياء أخرى.

كنتِ تطرحين، أو تحسبين الملامح التي جاءت من جهة أمك في الأسرة، كنت تحاولين أن تتخيلي وجه ذلك الرجل الذي جاء بك إلى هذا الوجود. كان ذلك، بالتحديد، هو العامل الذي لم تفكر فيه أمك وصديقاتها جيدًا: أن الطفل عندما ينظر يومًا في المرآة، سيدرك أنه كان هناك شخص آخر، ويتمنى أن يعرف كل شيء عنه. بعض الناس يقضي حياته كلها في محاولة لتتبع ملامح الأب أو الأم.

كانت «إيلاريا» مقتنعة بأن الوراثة تلعب دورًا ضئيلًا في نمو الطفل، بينما التربية وكل ما يحيط به، وأسلوب التنشئة هي العوامل الأهم. أنا لا أوافق على هذه النظرة، وأرى أن لكليهما ... الوراثة والبيئة أهمية متساوية؛ التنشئة مسئولة عن النصف، وما نحمله معنا — منذ الميلاد — مسئول عن النصف الآخر.

قبل ذهابك إلى المدرسة، لم تكن ثمة مشكلة. فأنتِ لم تسألي أبدًا عن أبيك، وأنا بدوري كنت حريصة على عدم إثارة الموضوع، ولكن ... بمجرد أن دخلتِ المدرسة الابتدائية، ومن الكلام مع بقية البنات، وموضوعات التعبير الضارة التي يقترحها المدرسون، أصبحتِ مدركة أن هناك شيئًا مفقودًا في حياتك اليومية. كان معك في الصف أطفال من أسر محطمة بالتأكيد، ومن مستويات اجتماعية غير عادية، ولكن لم يكن، في حياة أحد منهم، مثل ذلك الغموض المتعلق بالأب.

كيف كان يمكنني، وأنتِ في السادسة أو السابعة، أن أشرح لك ما فعلته أمك؟ بالإضافة إلى أننا لو فكرنا في الأمر، لا أجدني أعرف سوى أنها حملت بك في تركيا ... وهذا هو كل شيء؛ لذا، لكي أخترع قصة، لا تكون مستحيلة التصديق كلية، بدأت من الحقيقة الوحيدة المؤكدة: بلد المنشأ!

اشتريت كتابًا عن الخرافات الشرقية، وكنت أقرأ لكِ حكاية كل ليلة. مستخدمة الخرافات كنماذج، اخترعت حكاية لك خصوصًا. هل ما زلت تتذكرينها؟ كانت أمك أميرة، وأبوك أميرًا على القمر الهلال. ومثل كل الأمراء والأميرات أحب كلاهما الآخر، وكان على استعداد للموت فداء له. لكن، كان هناك في البلاط كثيرون يغارون من ذلك الحب. كان أكثرهم غيرة وحقدًا ... الوزير الأول، وكان رجلًا قويًّا وشريرًا، وهو الذي مارس سحره الخبيث على الأميرة والطفل، الذي كانت تحمله في رحمها. ولحسن حظ الأميرة، حذرتها

خادمة أمينة، وهكذا تمكنت أمك من الهرب، ذات ليلة، في ثياب فلاحة، ووجدت ملجأ هنا في المدينة التي ولدت بها.

وكنت تسألين: «أنا ابنة أمير؟» وكانت عيناك تلمعان.

«نعم يا حبيبتي، ولكنه سر غامض ... غامض، ولا يجب أن تبوحي به لأحد.»

ماذا كنت أحاول أن أفعل بتلك الكذبة الفاحشة؟ لا شيء سوى أن أمنحك سنوات قليلة خالية من الهم. كنت أعرف أنك يومًا ما لن تستمري في تصديق تلك الحكاية الخرافية، وكنت أعرف أيضًا أن هناك احتمالَ أن تكرهيني عندما يحدث ذلك. ولكن، كان من المستحيل ألا أحكي لك القصة. حتى لو كنت قد استجمعت كل ما تبقى لديَّ من شجاعة، ما كان بوسعي أن أقول لك: «ليس لديَّ فكرة عمن يكون أبوك ... وربما ليس لدى أمك أيضًا.»

كانت سنوات تحرر جنسي ... عندما كانوا يعتبرون النشاط الجنسي وظيفة تتم عندما يريد الشخص يومًا مع شريك، ويومًا آخر مع غيره. كان لأمك عشرات الأصدقاء، ولكنني لا أعرف من بينهم أحدًا استمرت علاقتها به أكثر من شهر.

«إيلاريا» التي كانت غير مستقرة، وقلقة بطبيعتها، كانت متأثرة، أكثر من معظمهن، بحياة الحب الخطرة تلك. ورغم أنني لم أمنعها من فعل أي شيء تريده، ولم أنتقدها، على أي نحو، مهما كان، إلا أنني كنت أرى تلك الإباحية شيئًا مقلقًا. لم تكن الفوضى الجنسية بالتحديد هي التي صدمتني، وإنما عملية إفقار الحواس ... مع اختفاء المحرمات والإحساس بفرادة الذات، اختفت العواطف. كانت «إيلاريا» وأصدقاؤها أشبه بضيوف في حفل مصابين بنزلة برد، ويأكلون ما يوضع أمامهم بدافع من اللباقة، حتى ولو كان كل الطعام ... الجزر، اللحم البارد، الحلوى ... له نفس الطعم.

اختيار أمك كانت تمليه عليها — جزئيًّا — الإباحية الجديدة، وربما شيء آخر إلى جانب ذلك. ما مدى علمنا بنشاط العقل؟ كثير، ولكن ليس كل شيء. من يستطيع أن يقول إنها في لاوعيها العميق كان لديها شعور حدسي أن الرجل الذي كانت تراه يوميًّا لم يكن أباها؟ هل كان قلقها، وعدم استقرارها نابعين من ذلك؟ كان ذلك سؤالًا لم أسأله لنفسي أبدًا عندما كانت صغيرة، ولا أثناء مراهقتها، ولا في بداية عهدها بالأنوثة. الحكاية التي أحطتها بها كانت محكمة، ولكنها عندما رجعت من إجازتها حبلى في شهرها الثالث، بدا لي أن لا مفر من الأكاذيب والزيف، أو بالأحرى، يمكنك أن تهربي لبعض الوقت، ولكن الأكاذيب تظهر فجأة من حيث لا تتوقعين، ويصبح من الصعب السيطرة عليها، كما حدث عندما قلتها في أول مرة، وأنت تظنين أن لا ضرر منها، ولكنها تتحول إلى وحوش ضارية

ومرعبة. بمجرد أن تقع عليها عيناك، تطرحك أرضًا وتلتهمك، وكل ما حولك، في جشع بالغ.

ذات يوم وأنت في العاشرة، رجعتِ من المدرسة، وصرختِ في وجهي ... «كذابة»، ودخلت، وحبست نفسك في غرفتك؛ لقد اكتشفت أن «الحدوتة» كانت كذبة.

«الكذابة» ... يمكن أن يكون ذلك عنوانًا لسيرتي الذاتية، لقد كذبت مرة واحدة منذ أن ولدت، ولكنها كذبة دمرت حياة ثلاثة أشخاص.

٤ ديسمبر

ما زال الشحرور أمامي على الطاولة، لا يأكل جيدًا كما كان يفعل في الأيام القليلة الماضية. وبدلًا من السقسقة، بلا توقف، ها هو قابع في الصندوق، لا يرفع حتى رأسه، ولا أرى سوى ما فوقها من ريش. رغم برودة الجو هذا الصباح، ذهبت مع أسرة «رازمان» إلى المشتل، لم أقرر الذهاب إلا في آخر لحظة. البرد قد يجعل الدب القطبي يفكر مرتين، وفي ركن ما من قلبي كان هناك صوت يتساءل عن جدوى زراعة المزيد من الزهور.

ولكنني عندما بدأت أدير رقم تليفون أسرة «رازمان» لاحظت الألوان الذاوية في الحديقة، وأنَّبت نفسي لأنانيتي. قد لا أعيش لأشهد ربيعًا آخر، ولكنك سوف تشهدين! أشعر بالاضطراب في الفترة الأخيرة، عندما لا أكتب أتجول قلقة في أرجاء المنزل، لا أجد مكانًا أحس فيه بالاطمئنان والهدوء. لا شيء من الأشياء القليلة التي ما زلت قادرة على عملها يمنحني أي شعور بالرضا، أو ينجح في طرد الذكريات الحزينة لحظة واحدة.

لديَّ انطباع بأن الذاكرة تعمل مثل ثلاجة حفظ المواد عند درجة التجمد. عندما تخرجين الطعام منها تعرفين ما يحدث. في البداية يكون صلبًا مثل قالب الطابوق، لا رائحة ولا طعم له، مغطى بطبقة من الجليد. بمجرد تسخينه يبدأ في استعادة شكله ولونه المعروفين بالتدريج، ويملأ المطبخ برائحته. وبالطريقة نفسها ... تقبع الذكريات الحزينة والموجعة ساكنة في زوايا عقل الإنسان الكثيرة عدة سنوات، عقودًا، حياة بكاملها، ثم يومًا ما تظهر على السطح، ويستنبط الألم، الذي كان جزءًا منها، يظهر قويًّا وحادًّا ومؤلمًا، كما كان في ذلك اليوم البعيد.

كان ذلك هو أن أحكي لك عن نفسي، عن سري. لكن القصة ... أية قصة ... لا بد أن تبدأ من البداية. وهذه القصة تبدأ في طفولتي، في تلك العزلة غير العادية التي نشأت فيها، والتي استمرت معي حتى في الكبر. عندما كنت صغيرة، كان الذكاء يعتبر عاملًا سلبيًّا

في المرأة، عندما يتعلق الأمر بالزواج. بحكم العادة، كان المفترض أن تكون الزوجة فرسة للاستيلاد لا أكثر. مذعنة، مجرد زينة. المرأة التي تطرح أسئلة، التي لها مطالب، القلقة، كانت آخر من يتمناها الرجل كزوجة، وذلك يفسر لماذا كان شعوري بالوحدة عميقًا عندما كنت صغيرة. ولكي أقول لك الحقيقة ... بين الثامنة عشرة والعشرين، حيث إن شكلي كان مقبولًا، ومن أسرة غنية إلى حد ما، كان هناك أعداد كبيرة ممن يطلبون يدي للزواج. ولكنهم كانوا يختفون بمجرد أن يكتشفوا أنني أناقش، وأني أفتح قلبي، وأتكلم عما يشغل تفكيري. بالطبع كان يمكن أن أظل ساكتة، وأتظاهر بأنني شيء لم أكنه، ولكن لسوء الحظ — وربما لحسنه — كان هناك، رغم تنشئتي، جزء مني ما يزال حيًّا، ويرفض أن يعيش الكذب.

بعد المدرسة الثانوية، كما تعرفين، توقفت دراستي لأن أبي رفض أن أكمل تعليمي، كانت تلك خيبة أمل كبيرة لي، وكانت — بلا شك — سببًا في أنني أصبحت متعطشة للمعرفة. بمجرد أن يقول شخص ما إنه كان يدرس الطب، أمطره بوابل من الأسئلة؛ كنت أريد أن أعرف كل شيء. الشيء نفسه كنت أفعله مع طلبة الهندسة والقانون، وكان ذلك يربكهم، حيث يترك لديهم انطباعًا بأنني مهتمة بدراستهم أكثر منهم ... وربما كانوا على حق في ذلك. وعندما كنت أتكلم مع غيري من البنات في المدرسة كنت أشعر وكأنني مخلوق من كوكب آخر ... من سنوات ضوئية بعيدة. الفارق الرئيس بيننا كان موضوع مكر وخداع الأنثى. بينما لم يكن لديَّ أية درجة من ذلك، كن قد بلغن فيه شأوًا بعيدًا. خلف الواجهات المتغطرسة المليئة بالثقة بالنفس، فإن الرجال قابلون للاختراق ... سذج ... يخفون في العمق منهم استجابات بدائية، يستخدمون الطعم المناسب ... ويصطادون. أنا أدركت ذلك متأخرًا، ولكن زميلات الدراسة كن يعرفنه وهن في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة.

كن يتبادلن الرسائل الغرامية حسب العادة، يتقبلنها أو يرفضنها، يتصنعن نغمة مختلفة عندما يردن، ينظمن المواعيد، ولا يجئن، أو يتأخرن في المجيء. وفي حفلات الرقص كن يجهدن أنفسهن وهن يحملقن في عيون شركائهن حالمين مثل إناث الظباء الصغيرات.

كانت تلك كلها غوايات أنثوية، مغريات ومشهيات تؤدي إلى النجاح مع الرجال، لكنني — كما ترين — كنت مثل «الكوز»! مغفلة! لم أكن أفهم شيئًا مما يدور حولي. ربما اعتبرتِ ذلك غريبًا، ولكن الحقيقة أنه كانت بداخلي مسحة شديدة من الصدق، هذا الشعور بالصدق كان يوعز لي — دائمًا — بأنني لن أتلاعب أبدًا، وأعني أبدًا، برجل ما على نحو ماكر أو خادع.

كنت واثقة أنني — يومًا ما — سأجد شابًّا أستطيع أن أتكلم معه طويلًا في الليل دون ملل، نتكلم ونتكلم، ثم نكتشف أننا نرى الأشياء من منظور واحد، ونشعر بالعواطف والأحاسيس نفسها. كنت أريد صداقة حب، وكنت في ذلك أعبِّر عن خصيصة ذكورية في العلاقة التي أزعجت من كانوا يتقدمون لخطبتي، ولذلك — شيئًا فشيئًا — ارتضيت لنفسي دور الفتاة العادية. كان لديَّ صداقات نسائية كثيرة، ولكنها كانت كلها من جانب واحد. كن يبحثن فقط عن محل ثقة ... عن مستودع لأسرارهن الغرامية، وتزوجن، واحدة تلو الأخرى، وفي وقت ما، كنت لا أفعل شيئًا سوى الذهاب إلى حفلات الزفاف. رفيقات عمري أصبح لديهن أطفال، أما أنا فكنت دائمًا الخالة العانس، وكنت ما أزال أعيش مع والديَّ، وفي ذلك الوقت كنت قد استسلمت لفكرة أنني سأظل عانسًا إلى الأبد. كانت أمي تتساءل: ماذا بك؟ ماذا حدث مع هذا الرجل أو ذاك؟ إنهم شباب جيدون. وكان والداي يرجعان — دائمًا مشاكلي — مع الجنس الآخر إلى غرابة شخصيتي. هل كان ذلك يزعجني؟ لا أعرف.

بالفعل، لم أكن أشعر برغبة ملحة في تكوين أسرة. فكرة الإنجاب جعلتني قلقة. كنت قد عانيت كثيرًا في طفولتي، وأخشى أن أكون سببًا في حزن مماثل لمخلوق بريء. هذا بالإضافة إلى أنني، رغم إقامتي معهما في المنزل، كنت مستقلة تمامًا. كل ساعة من ساعات اليوم ملك لي، أقضيها كما أريد. كسبت مبلغًا ضئيلًا من تدريس اليونانية واللاتينية لبعض التلاميذ، وهما الموضوعان المفضلان لديَّ، وباستثناء ذلك، كان وقتي كله ملكي. كان يمكن أن أمضي المساء كله في المكتبة العامة دون مراجعة أي شخص آخر عن تصرفاتي، أو أن أخرج في إجازة كلما شعرت بالرغبة في ذلك.

مقارنة بغيري من النساء، كانت حياتي حرة، وكنت أخشى أن أفقد تلك الحرية، إلا أنه بمرور الوقت، اتضح أن تلك الحرية، تلك السعادة الظاهرية، كانت زائفة ومتكلفة. الوحدة التي بدأت بها، وكانت تبدو ميزة، بدأت تصبح عبئًا. كان العمر يتقدم بأبي وأمي، أبي أصيب بجلطة أصبح بعدها أعرج. كل يوم أشبك ذراعه في ذراعي، ونخرج لشراء الجريدة له. كنت آنذاك في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين. أنظر إلى خيالينا في واجهات المحلات فأشعر بأنني قد أصبحت — أنا الأخرى — عجوزًا، وأدرك الاتجاه الذي كانت حياتي تأخذه.

لن يمر وقت طويل قبل أن يموت، وسوف تتبعه أمي سريعًا، وأبقى أنا وحيدة في منزل واسع مملوء بالكتب، ربما كنت ألجأ إلى التطريز أو الرسم أحيانًا لتمضية الوقت. وتكر السنوات سريعًا، سنة بعد أخرى. وأخيرًا، شخص ما يقلقه عدم ظهوري لعدة أيام،

فطلب شرطة الإطفاء ذات صباح. جاءوا، دفعوا الباب فوجدوني ملقاة على الأرض، كان يمكن أن أموت، وما يتبقى مني لن يكون مختلفًا كثيرًا عن الهيكل العظمي الجاف لحشرة ميتة.

شعرت بأن جسد المرأة فيَّ كان يذوي، دون أن أكون قد عشت، وملأني ذلك بالحزن. بعد ذلك كنت أشعر بالوحدة ... الوحدة القاتلة. لم يكن في حياتي أحد أتكلم معه ... مجرد أن أتكلم معه ... وأعني ذلك تمامًا. نعم من المؤكد أنني كنت ذكية، قرأت كثيرًا، وفي النهاية كان أبي يقول دائمًا:

«أولجا لن تتزوج، إنها ذكية أكثر من اللازم!»

ولكن كل ذلك الذكاء — المفترض — لم يوصلني إلى شيء. كنت عاجزة عن بدء مسيرة حقيقية، أو دراسة أي شيء بعمقٍ. شعرت بأن نموي العقلي قد توقف بسبب عدم التحاقي بالجامعة، ولكن السبب الحقيقي لعجزي، وعدم قدرتي على استخدام المواهب التي لديَّ ... كان في شيء آخر. على أية حال، كان «سكليمان» رجلًا، علَّم نفسه بنفسه عندما اكتشف طروادة، كان ما يعطلني هو شيء آخر؛ حادث ذلك الكلب الصغير الميت.

هل تتذكرين؟ كان هو الذي كبَّلني، أوقف تقدمي. كنت أقف ساكنة، في حالة انتظار، منتظرة ماذا؟ لا أعرف بالمرة.

نزل الثلج يوم مجيء «أوجستو» إلى منزلنا للمرة الأولى. أتذكر ذلك جيدًا، لأن الثلج كان منظرًا نادرًا في هذا الجزء من العالم الذي نعيش فيه، وكان سبب تأخر ضيفنا على العشاء. كان «أوجستو»، مثل أبي، مستوردًا للبن، وكان قد جاء إلى «تريستا» للتفاوض على بيع متجرنا.

بعد إصابته بالجلطة، ونظرًا لعدم وجود وريث ذكر، كان والدي قد قرر أن يبيعه ويقضي بقية عمره في هدوء. لم تكن انطباعاتي الأولى عن «أوجستو» مرضية. جاء من إيطاليا، كما كان يقول معظم الناس في منطقتنا، ومثل معظم الإيطاليين كانت طباعه متكلفة، وكنت أجد ذلك مزعجًا. شيء غريب فعلًا ... ألا يكون الانطباع الأول، عن الناس المقدَّر لهم أن يلعبوا دورًا مهمًّا في حياتنا، جيدًا. بعد العشاء دخل أبي ليستريح تاركًا إياي أحتفي بضيفنا في غرفة الجلوس حتى يحين وقت القطار الذي سيعود به. كنت في غاية الضيق. على مدى الساعة التي قضيناها معًا. كنت في منتهى قلة الذوق. أجيب عن أسئلته باقتضاب، ولا أتكلم إلا إذا تكلم هو، وعندما مد يده لي، وهو منصرف، أعطيته يدي بكل غطرسةٍ ولا مبالاةٍ دوقةٍ تتعطف بجميل على شخص دونها منزلة.

في تلك الليلة، قالت أمي على العشاء: «شاب لطيف جدًّا كإيطالي، هذا الأوجستو!»، وقال أبي: «إنه نزيه ... ورجل أعمال ناجح»، ولك أن تخمني ما حدث، انطلقت، بكل حماس وبلا تفكير، وقلت: «ولم يكن في إصبعه خاتم زواج»، وقبل أن يرد والدي: «مسكين! أعزب!»، كان وجهي في لون الطماطم، وكنت محرجة لاندفاعي.

بعد يومين عندما عدت من الدرس، وجدت طردًا صغيرًا مغلفًا بورق مفضض بجوار الباب الخارجي. لم أكن قد تلقيت في حياتي طردًا، ولم أستطع أن أتخيل مرسله، وتحت الغلاف وجدت قصاصة صغيرة: «هل تذوقتِ هذه من قبل؟» والتوقيع ... «أوجستو». في تلك الليلة، وتلك الحلوى جوار سريري ... لم أنم. قلت لنفسي إنه أرسلها كمجاملة مهذبة لأبي، ورحت ألتهمها قطعة بعد قطعة. بعد ثلاثة أسابيع عاد إلى «تريستا»، «في عمل» كما قال على العشاء، وفي هذه المرة بقي في المدينة فترة، ولم يغادر مباشرة، كما فعل من قبل. قبل أن يستأذن في الانصراف، سأل والدي إن كان بالإمكان أن يأخذني معه في جولة بالسيارة، ووافق والدي دون أن يأخذ رأيي. قضينا بعد الظهر كله في جولة بسيارته في أرجاء المدينة. لم يتكلم كثيرًا. طلب أن أحدِّثه عن الآثار المختلفة، وكان يستمع إلى ما أقول وهو صامت. كان يستمع إليَّ ... ولم يكن ذلك أقل من معجزة بالنسبة لي.

ويوم سفره أرسل إليَّ باقة ورد أحمر. كانت أمي سعيدة، أما أنا فتظاهرت بغير ذلك، إلا أنني انتظرت عدة ساعات قبل أن أفتح البطاقة لكي أقرأها. وفي خلال زمن قصير، أصبحت زياراته مناسبة أسبوعية. كان يجيء إلى «تريستا» كل سبت، ويعود إلى مدينته يوم الأحد.

هل تتذكرين كيف روَّضَ الأمير الصغير الثعلبة؟ كان يجلس خارج جحرها كل يوم ينتظر خروجها حتى تتعلم كيف تتعرف عليه ولا تخاف، إلى أن أصبحت في حالة قلق واستثارة كلما أبصرت شيئًا يذكِّرها بصديقها الصغير. بالطريقة نفسها، كنت دائمًا في حالة قلق وترقب كل خميس ... بدأت عملية الترويض؛ في أقل من شهر، أصبحت حياتي تدور حول انتظار نهاية الأسبوع، نما بيننا شعور بالألفة في وقت قصير.

أخيرًا! هنا شخص يمكن أن أتكلم معه، يقدِّرُ ذكائي، ويتعاطف مع حبي للمعرفة. وأنا من ناحيتي كنت أقدِّر هدوءه، وصفاته كمستمع جيد. إنه الإحساس بالأمان، بالحماية التي يمكن أن يوفرها رجل كبير لامرأة شابة.

تزوجنا في احتفال بسيط في أول يونيو ١٩٤٠، وبعد عشرة أيام كانت إيطاليا في الحرب؛ لجأت أمي إلى قرية صغيرة في جبال «فينيتو»، بينما ذهبنا — أنا وزوجي — إلى «لاكيلا».

بالنسبة لك، يا من عرفت تاريخ تلك السنوات من الكتب فقط، ودرستِها أكثر مما عشتِها، لا بد أن يبدو غريبًا أن أحذف كل ذكرى للأحداث التراجيدية التي وقعت. كانت هنا الفاشية والقوانين العرفية. قامت الحرب ولم أكن أفكر إلا في همومي الصغيرة، والتحركات الميكروسكوبية لروحي. لا تظني أن توجهي كان شيئًا غير عادي. هو أبعد من أن يكون كذلك، باستثناء قلة قليلة مسيسة، كان كل من في المدينة يفعل الشيء نفسه.

والدي مثلًا، الذي كان يعتبر الفاشية هراء، ويُسمي «الدوتشي» في البيت «بائع البطيخ» ... كان يذهب ليتعشى في المساء مع كبار الفاشست، ويثرثر معهم بالساعات حتى آخر الليل. بالطريقة ذاتها، كنت أجد أن عملية المشاركة في «يوم السبت الإيطالي» وكأنها اضطرار للسير والغناء في حداد أسود. كنت أرى ذلك شيئًا غريبًا ومضيعة للوقت. ومع ذلك ذهبت، وكان توجهي أن ذلك واجب ثقيل مضجر لا بد من التخلص منه ... من أجل حياة هادئة. بالتأكيد، لا شيء بطوليًّا في مثل هذا السلوك، ولكنه عادي جدًّا. إن حياة مطمئنة، لأحد طموحات الإنسان الكبرى. كان الأمر هكذا حينذاك، وهكذا هو اليوم، غالبًا.

في «لاكيلا»، كنا نعيش في منزل عائلة «أوجستو»؛ شقة كبيرة في الدور الأول من قصر يليق ببارون في وسط المدينة. أثاث المنزل ثقيل وداكن اللون، والضوء شحيح والمنظر كله كئيب. بمجرد أن عبرتُ عتبة الباب، غاص قلبي في رجلي. وكنت أسائل نفسي: هل سأعيش هنا مع رجل لم أعرفه إلا لستة أشهر ... وفي مدينة ليس لي فيها صديق واحد؟ زوجي أدرك قنوطي في الحال، وفي خلال الأسبوعين الأولين كان يبذل كل ما في وسعه لكي ينتزعني من تلك الأفكار.

كان يأتي من يوم لآخر بالسيارة، ونخرج للتجول في التلال حول المدينة. كنا نحب الرحلات الخلوية. منظر الجبال الجميلة والقرى الفاتنة المتحلقة حول قمم التلال كان له أثر مهدئ، لدرجة تشعرني بأنني لم أبرح الشمال ... موطني الأصلي. كنا نتكلم كثيرًا. «أوجستو» يحب الطبيعة، والحشرات بخاصة، وفي تلك الرحلات كان يشرح لي أشياء كثيرة، وأنا مدينة له بكل معلوماتي في التاريخ الطبيعي تقريبًا.

بعد انقضاء الأسبوعين — شهر العسل — عاد لعمله، وبدأت أنا حياتي العادية وحيدة في الشقة الكبيرة، باستثناء وجود خادمة واحدة. كانت سيدة مسنة تقوم بمعظم الأعمال المنزلية، بالإضافة إلى الطبخ. كنت مثل زوجات الطبقة المتوسطة، بمجرد الانتهاء من إعداد قائمتي الطعام للغداء والعشاء، لا يصبح لديَّ ما أفعله.

اعتدت أن أخرج كل يوم للتمشية، أسير في الشوارع بسرعة كبيرة وبرأسي دوامة أفكار لا أستطيع أن أتبيَّنها.

أسأل نفسي ... هل أنا أحبه؟ ثم أسأل فجأة ... هل كانت غلطة كبيرة؟ عندما كنا نجلس على مائدة الطعام أو في غرفة الجلوس مساء ... أنظر إليه، وأسأل نفسي عن شعوري. كنت أشعر بالحنان ... بالتأكيد ... وكنت متأكدة أن لديه الشعور نفسه نحوي. ولكن ... هل كان ذلك هو الحب؟ هل كان ذلك كل شيء؟ ولأنني لم أشعر أبدًا بأي شيء آخر ... لم أجب أبدًا عن السؤال.

بعد مرور شهر، وصلت الهمسات الأولى إلى أذني زوجي. قالت تلك الأصوات المجهولة: «الألمانية تسير في الشوارع وحدها طيلة ساعات النهار.» تملكتني حيرة تامة، حيث إنني كنت قد نشأت في بيئة مختلفة، لم أكن أتخيل أن جولاتي البريئة يمكن أن تثير فضيحة. لم يكن «أوجستو» سعيدًا، وأدرك لماذا وجدت الموقف غير مفهوم، ولكن من أجل سلام الجيرة، وحفاظًا على سمعته، رجاني أن أكف عن تلك الجولات الانفرادية. وبعد ستة أشهر من هذه الحياة شعرت بأنني قد أصبحت مجردة من كل ذرة حيوية.

كبر الكلب الصغير الميت في داخلي، أصبح ضخمًا، وكنت أتحرك مثل الإنسان الآلي، عيناي زجاجيتان، عندما أتكلم أسمع كلماتي كأنها صادرة من شخص آخر. في الوقت نفسه، كنت قد تعرَّفت على زوجات زملاء «أوجستو»، وكنا نلتقي، كل خميس، في مقهى في وسط المدينة. ورغم أننا كنا كلنا في عمر واحد تقريبًا، إلا أنه لم يكن هناك بيننا سوى كلام قليل، مجرد أننا نتكلم لغة واحدة، ولا شيء آخر مشتركًا.

أما «أوجستو» فلأنه كان منهمكًا في أعماله، فقد بدأ يتصرف مثل كل الرجال في منطقته، أصبحنا — نادرًا — ما نتكلم أثناء الطعام، وعندما أحاول أن أبدأ حوارًا، يرد باقتضاب شديد؛ يرد بنعم أو لا! وبعد العشاء كان يذهب إلى النادي عادة، حتى عندما يبقى في المنزل، كان يقضي الوقت كله في مكتبته، يرتب مجموعاته من الحشرات.

كان طموحه الأكبر هو أن يكتشف حشرة جديدة، لم يكتشفها أحد قبله لكي يدخل اسمه المراجع العلمية ... وإلى الأبد. كنت أتمنى أن يخلد اسمه، ولكن بطريقة أخرى، من خلال ابن. كنت حينذاك في الثلاثين، وأشعر أن رمال الزمن أصبحت تجري بسرعة أكبر، وكانت الأمور لا تسير على ما يرام في تلك الشقة، بعد ليلة زفاف مخيبة للآمال ... لم يحدث شيء آخر.

كنت أشعر أن كل ما يريده «أوجستو» هو أن يجد شخصًا آخر هناك أثناء الطعام، امرأة يظهر معها فخورًا في الكنيسة أيام الأحد ... ويبدو أنه لم يكن مهتمًّا أبدًا بالشخص الذي يمكن أن يكون خلف تلك الواجهة المريحة. أين ذهب ذلك الرجل اللطيف المعشر في أيام المطارحات الأولى؟ هل يمكن أن ينتهي الحب هكذا؟ ذات مرة قال لي «أوجستو» إن

الطيور تغني في الربيع بصوتٍ أعلى لكي تجذب شريكًا يعاونها على بناء عش. هو فعل الشيء نفسه، لكن بمجرد أن دخلت العش توقف كل اهتمام بي. كنت موجودة لأدفئ العش ... وكان ذلك بالنسبة له هو كل المطلوب ... كل شيء.

هل كرهته؟ لا! قد يبدو ذلك غريبًا، ولكنني لم أستطع أن أجعل نفسي أكرهه؛ لكي يحدث الكره لا بد أن يجرحك الشخص المعني، يلحق بك أذًى من أي نوع؛ «أوجستو» لم يفعل شيئًا من ذلك ... وكانت تلك هي المشكلة.

من الأسهل أن يموت المرء من العدم، عن أن يموت من الألم. يمكنك أن تتمردي على الألم، ولكنكِ لن تستطيعي أن تتمردي على العدم، وعندما كنت أتحدث مع والديَّ بالتليفون كنت بالطبع أقول لهما إن كل شيء على ما يرام، وأجبر نفسي على الكلام بصوت ولهجة يوحيان بأنني عروس سعيدة. كانا يثقان أنني في يد أمينة، ولم أكن أود أن أهز ثقتهما. أمي كانت ما تزال هناك في الجبال، وأبي في منزل العائلة، تقوم ابنة عم له برعايته. يسألني مرة كل شهر: «أخبارك؟»، وفي كل مرة أجيبه: «لا! ليس بعد». كان يتمنى حفيدًا. مع الشيخوخة، جاء حنان لم يكن لديه من قبل، والآن كنت أشعر أنني أكثر قربًا منه، لأن ذلك التغير قد طرأ عليه، وكنت حزينة أن أخيب أمله. وفي الوقت نفسه لم يكن لديَّ الثقة لأن أشرح له سبب مرور تلك الفترة الطويلة دون حمل. كانت أمي تكتب لي رسائل طويلة منمقة ... «ابنتي الفاتنة ...» كانت تكتب ذلك في أعلى الصفحة التي تملؤها بعد ذلك بوصف تفصيلي للأشياء القليلة المؤسسية التي تكون قد قامت بها في ذلك اليوم، وفي نهاية الرسالة تقول — دائمًا — إنها قد انتهت من تطريز كسوة الوافد الوشيك.

وفي الوقت نفسه، كنت أنا أذوي، كل يوم أرى خيالي في المرآة أقبح مما كان في اليوم السابق. أسال «أوجستو» أحيانًا في المساء: «لماذا لا نتكلم معًا؟» يجيبني: «عمَّ؟» دون أن يرفع عينيه عن العدسة التي يفحص بها حشراته. أقول: «لا أعرف ... ربما يقول أحدنا للآخر شيئًا ... أي شيء»، فيهز رأسه، ويقول: «كم لديك من أفكار مضحكة!»

من العادي أن نقول إن الكلاب تأخذ شكل أصحابها إذا عاشت معهم فترة طويلة كافية. كان لديَّ الانطباع نفسه، أن ذلك يحدث بالنسبة لزوجي. بمرور الوقت، سيصبح شكل الخنفساء في كل شيء؛ حركاته لم تعد حركات إنسان بالمرة، بدل أن تكون تلقائية أصبحت هندسية، كل إيماءة تتم بتسلسل من التقلصات أو الاهتزازات، أصبح صوته بلا نبرات! صوت معدني يصدر من مكان مجهول في حلقه. الحشرات وعمله استغرقا كل اهتمامه لدرجة الهوس؛ لا شيء آخر يثير فيه أدنى درجة من الحماس. ذات يوم أراني

حشرة مقززة كان يمسكها بملقط. أعتقد كان اسمها «الخلد صرار الليل» قال: «انظري إلى الفكين، يمكنه أن يأكل بهما أي شيء.» في تلك الليلة حلمت به في الهيئة نفسها، كان ضخمًا، ويقوم بالتهام ثوب زفافي كأنه قطعة من الكرتون. بعد عام أصبحنا ننام في غرفتين منفصلتين، كان يسهر مع خنافسه حتى وقت متأخر، ولا يريد أن يزعجني ... أو كما قال!

عندما أصف لك ذلك، لا بد أن يبدو زواجي غير عادي بالنسبة لك، لكن ... الحقيقة أنه لم يكن هناك شيء غير عادي. في تلك الأيام كان الزواج هكذا تقريبًا! جهنم أسرية يموت فيها أحد الشريكين عاجلًا أو آجلًا.

لماذا تحملت؟ لماذا لم أحزم حقائبي، وأعود إلى «تريستا»؟ لأنه لم يكن هناك في تلك الأيام انفصال أو طلاق. الزواج يمكن أن ينتهي فقط في حالة معاملة سيئة جدًّا، وإلا احتاج الإنسان إلى روح تمرد عنيفة لكي يهرب ويقضي بقية حياته هائمًا في العالم. لكن التمرد، كما تعرفين، ليس جزءًا من طبيعتي. لم يرفع «أوجستو» صوته عليَّ مرة واحدة، ولا أقول إصبعًا. كان يرى أنني لا ينقصني شيء. في طريق عودتنا من قداس الأحد، كنا نتوقف عند حلواني «نورزيا»، ويطلب مني أن أتناول أي شيء أريد. لك أن تتصوري شعوري، كل صباح، عندما أقوم من النوم، بعد ثلاث سنوات كان تفكيري الوحيد هو الموت.

لم يتكلم معي «أوجستو» أبدًا عن زوجته السابقة، وفي المرات النادرة التي كنت أهمُّ فيها بالسؤال، كان يغيِّر الموضوع. بمرور الوقت، وأنا أجول في غرف الأشباح تلك في الليالي الشتوية، أصبحت مقتنعة أن «آرا» — كان ذلك هو اسمها — لم تمت نتيجة مرض أو حادث وإنما بيدها. عندما لا تكون الخادمة موجودة، كنت أقضي الوقت في رفع ألواح الأرضية، وإزالة الأدراج، وأبحث محمومة عن أي مفتاح يؤكد شكوكي. وذات يوم مطير وجدت ثيابًا نسائية في قاع إحدى الخزائن، كانت ثيابها. جذبت فستانًا غامق اللون، وجربته عليَّ، كان على قياسي، وعندما نظرت إلى نفسي في المرآة بدأت أبكي، بكيت في صمت، لم أنتحب ... وإنما بكيت مثل شخص يعرف أن مصيره قد تقرر.

في ركن من إحدى الغرف، كان يوجد كرسي خفيض منجد بلا ذراعين، وكان يخص أم «أوجستو»، وهي امرأة شديدة التقوى. عندما كنت لا أعرف ماذا أفعل، أحبس نفسي في الغرفة، وأركع عليه بالساعات مشبوكة الذراعين. هل كنت أصلي؟ لا أعرف، كنت أتكلم، أو أحاول أن أتكلم مع أحد أتخيله هناك فوق رأسي.

قلت: يا رب ساعدني أن أجد طريقي، وإن كانت تلك هي الطريق التي لا بد أن أمشيها ... ساعدني على تحمُّل ذلك.

الحضور المتكرر في الكنيسة، والذي جعلته حالتي الزوجية إجباريًّا، كان يثير غابة من الأسئلة في عقلي. أسئلة كانت هاجعة منذ الطفولة. كان البخور يدوخني، وكذلك صوت الأرغن، وعندما أصغي للتراتيل كان شيء ما، غامض، ينبض في داخلي. وعندما قابلت القسيس بعيدًا عن الكنيسة، وبدون ردائه الكهنوتي، عندما رأيت أنفه الإسفنجي المتورم، وعينيه الصغيرتين الأشبه بعيني خنزير صغير، عندما سمعت أسئلته التافهة والزائفة؛ توقف النبض تمامًا، ورحت أفكر: هذا أنت! لا شيء سوى خداع وزيف. طريقة لمساعدة ضعاف العقول على تحمُّل ظلم حياتهم اليومية. ورغم ذلك فإنني كنت أحب قراءة الإنجيل في ذلك المنزل الصامت. كنت أجد كثيرًا من تعاليم المسيح غير عادية، وكانت تشرح صدري فأظل أكررها بصوتٍ عالٍ.

لم تكن عائلتي متدينة بالمرة. كان والدي يفاخر بأنه مفكر حر، أما والدتي، التي تحولت عائلتها من اليهودية منذ جيلين قبلنا، كما قلتُ لكِ من قبل، فكانت تذهب إلى القداس فقط لأن ذلك كان هو المتوقع منها. وفي المرات النادرة التي كنت أسألها عن العقيدة الدينية، كانت تجيبني دائمًا: «لا أعرف، ليس لعائلتنا دين»، وكانت تلك العبارة تهوي مثل حجر الطاحونة على سنوات عمري الغضة، عندما كنت قد بدأت أتساءل عن أشياء مهمة، كانت الكلمات مثل وصمة العار. تخلينا عن دين لنعتنق دينًا آخر، لا نكنُّ له أي احترام، كنا خونة، وبالنسبة لنا، لكل الخونة، ليس هناك مكان على الأرض ولا في السماء.

لذا، فباستثناء بعض القصص الإنجيلية القليلة التي حكتها لي راهبات المدرسة، لم يكن لديَّ أية ثقافة دينية بالمرة حتى سن الثلاثين. «مملكة الرب بداخلك» كنت أردد ذلك لنفسي، وأنا أتنقل بين الغرف الفارغة، وبينما أرددها أحاول أن أتخيل أين كانت. رأيت عيني تمتدان داخل جسدي مثل البيرسكوب، تفتشان في ثنايا بطني والزوايا الغامضة من مخي، أين مملكة الرب؟ لم أجدها. حول قلبي ضباب ... ضباب كثيف. وليست التلال المضيئة لجنتي المتخيلة. وفي أكثر لحظات صفائي، كنت أقول لنفسي إنني سوف أصاب بالجنون مثل كل العوانس والأرامل، وكنت أنزلق في هذيان ملغز ... ببطء، وعلى نحو غامض.

بعد أربع سنوات من حياة كهذه، أصبح من الصعب التمييز بين الحقيقي والزائف. أجراس الكاتدرائية القريبة تدق كل ربع ساعة تقريبًا، ولكي أتجنب سماعها، أو على الأقل لكي أخنق الصوت، اعتدت أن أحشو أذني بالقطن. استحوذت عليَّ فكرة أن حشرات

«أوجستو» لم تكن ميتة بالفعل، وكنت أسمع وقع أرجلها في أرجاء البيت ليلًا ... تتسلق ورق الحائط، تخربش في طريقها على أرضية المطبخ، تزحف على السجاد في غرفة الجلوس، وكنت أنام على السرير حابسة نَفَسي، أتوقعها أن تنفذ من ثقب الباب إلى غرفة نومي، حاولت ألا يرى «أوجستو» حالتي هذه.

كل صباح، أعلن خططي للعشاء بابتسامة على شفتي، تظل حتى يخرج من الباب، وعندما يعود، تعود الابتسامة الساكنة. ومثل زواجي كانت الحرب الآن في عامها الخامس. في شهر فبراير قصفوا «تريستا»، ودمرت إحدى القنابل الأخيرة منزل طفولتي. الخسائر الوحيدة كانت هي حصان أبي، وجدناه في الحديقة بدون اثنين من حوافره. في تلك الأيام، قبل التليفزيون، كان انتقال الأخبار بطيئًا عن الآن، عرفت بدمار منزلنا في اليوم التالي عندما كلمني والدي بالتليفون. بمجرد أن سمعت صوته شعرت أن شيئًا رهيبًا لا بد أن يكون قد وقع. كان صوت إنسان فقدت الحياة معناها بالنسبة له ... ومنذ وقت طويل. والآن ... وليس لديَّ مكان أعود إليه، شعرت فعلًا بالضياع. يومين أو ثلاثة كنت أجول في أنحاء البيت ذاهلة. لا شيء يمكن أن يهزني، ويخرجني من تلك الحال. رأيت حياتي تتقلب أمامي ... سلسلة طويلة من حياة مملة وكئيبة ... يمكن أن تستمر إلى أن أموت.

هل تعرفين الخطأ الذي نرتكبه جميعًا؟ هو أن نعتقد أن الحياة ثابتة، لا يمكن أن تتغير، وأننا بمجرد أن أطلقناها تتدحرج في خط معين، لا بد أن نظل على ذلك الخط إلى نهاية الرحلة. للقدر خيال أوسع من خيالنا. بمجرد شعورك أن لا مخرج من موقف ما، عندما تصلين إلى أعماق اليأس، يتغير كل شيء، ينقلب فجأة بسرعة عصفة ريح، ومن لحظة إلى أخرى تجدين نفسك تعيشين حياة جديدة.

بعد شهرين من قصف المنزل انتهت الحرب، ذهبت إلى «تريستا» فورًا.

كان والداي قد وجدا مسكنًا مؤقتًا في شقة، يتشاركان فيها مع آخرين، وكانت هناك تفاصيل كثيرة تتطلب اهتمامي، لدرجة أنني، قبل أن يمر أسبوع، كنت قد نسيت كل سنوات «لاكيلا».

جاء «أوجستو» بعد شهر، كان عليه أن يتسلم إدارة النشاط الذي اشتراه من والدي، والذي كان الآن في حالة كساد لتركه في يد مدير آخر أثناء سنوات الحرب. وهكذا كان والداي بلا مأوًى، وهما طاعنان في السن. وبسرعة فاجأتني، قرر «أوجستو» أن يترك مدينته الأصلية، وينتقل إلى «تريستا». اشترى هذا المنزل الصغير على الهضبة المرتفعة، وقبل الخريف كنا نقيم كلنا هنا معًا. وعلى عكس جميع التوقعات، كانت أمي أول من

رحل، ماتت في بداية الصيف؛ سنوات الوحدة الطويلة، والخوف ... أضعفت تكوينها العنيد ... القوي.

أيقظ موتها اشتياقي لطفل. وبدأت أنام مع «أوجستو» ثانية، ومع ذلك لم يحدث شيء — تقريبًا — بيننا ليلًا. كنت أقضي الساعات جالسة مع والدي في الحديقة. كان هو الذي قال، ذات مرة بعد ظهيرة يوم مشمس، إن المياه الكبريتية تصنع المعجزات للكبد وللنساء. بعد أسبوعين أوصلني «أوجستو» بالسيارة إلى المحطة، ووضعني في القطار المتجه إلى «فينيسيا»، ومن هناك أخذت قطارًا آخر إلى «بولونيا» في الصباح الباكر ... وبعد غيار آخر، وصلت في المساء إلى «بوريتا تيرمي». وللحقيقة، لم يكن لديَّ ثقة — أو لعلها كانت قليلة — في أثر المياه الكبريتية. كان قراري بالذهاب راجعًا — قبل أي شيء آخر — لرغبتي في أن أكون وحدي، بمفردي، أن أستمتع بصحبة نفسي، وعلى نحو مختلف عن كل السنوات الماضية. لقد عانيت كثيرًا، وكان كل جزء مني — تقريبًا — يشعر بأنه ميت. كنت مثل شيء محروق ... كل شيء فيه أسود، ويتحول إلى رماد ... فقط ... التعرض للمطر ولضوء الشمس والرياح، قد يساعد البقية الباقية مني بالتدريج، أن تجد طاقة لنموٍ جديدٍ.

١٠ ديسمبر

منذ رحيلك توقفت عن قراءة الصحف؛ لستِ موجودة لكي تشتريها لي، ولا أحد آخر يقوم بذلك. افتقدت أن تكون أول ما أبدأ به، ولكن أصبح عدم قراءتها مصدر راحة لي بالتدريج. أتذكر والد الكاتب «إسحاق باشيفي سنجر»، الذي كان يقول: إن أسوأ عادة اكتسبها الإنسان الحديث، هي عادة قراءة الصحف اليومية، في الصباح. عندما تكون روح الإنسان أكثر استعدادًا للتلقي، تنهال عليه الصحف بكل ما أنتج العالم من شرور في اليوم السابق. في تلك الأيام، كل ما كان يجب عليك أن تفعله هو أن تتجاهل الصحف ... لكي تتجنب ذلك، أما في أيامنا هذه فلم يعد ذلك ممكنًا؛ هناك الراديو والتليفزيون، وما عليك سوى أن تديرهما للحظة حتى يصل إليك الشر، ويزحف تحت جلدك.

وهذا ما حدث صباح اليوم. بينما كنت أرتدي ملابسي سمعت في أخبار الصباح المحلية أن الحافلات التي كانت تنقل اللاجئين سيُسمَح لها بعبور الحدود. كانت قد احتجزت هناك منذ أربعة أيام، لا يسمحون لها بالتقدم ولا بالعودة إلى حيث جاءت. كانت تحمل مسنين ومرضى ونساء وحيدات وأطفالهن الصغار. وكما قال قارئ الخبر، كانت أول مجموعة قد وصلت إلى المعسكر، الذي أقامه الصليب الأحمر، حيث يقدمون لهم الأشياء الضرورية. منذ نشوب تلك الحرب كنت أشعر بوجود شوكة في القلب، صورة كريهة، ولكنها تنقل الشعور بدقة. وبعد عام كنت لا أشعر بالألم فقط، وإنما بالسخط أيضًا، فقد بدا مستحيلًا أن يتقدم أحد لوقف المذابح. بعدها استسلمت للموقف. على أية حال، لا توجد آبار بترول في المنطقة، وإنما جبال حجرية. وبمرور الوقت تحوَّل السخط إلى غضب شديد، وظل ذلك الغضب يأكلني من الداخل مثل حيوان الخلد العنيد.

غريب أن أتأثر بالحرب وأنا في مثل هذه العمر، عندما يكون كل شيء قد قيل، وكل ما قيل قد حدث، والناس يحاربون بعضهم البعض كل يوم ... هكذا استطعت على مدى ثمانين

عامًا أن يكون لي جلد سميك، وأن أعتاد المكاره. كان اللاجئون والجيوش — منتصرين ومنهزمين — يمرُّون عبر العشب الأصفر في «كارسو» منذ أن ولدت. في البداية كانت هناك القطارات الحربية، التي تنقل جنود المشاة أثناء الحرب العظمى، وكانت القنابل تنفجر على الهضاب العالية، ثم طوابير طويلة من البشر العائدين من المعسكرات الروسية واليونانية، من حمامات الدم النازية والفاشية ومجازر الخنادق ... والآن ها هي أصوات المدافع الثقيلة، مرة أخرى، تدوي على طول الحدود، ونزوح جماعي للأبرياء الفارين من حقول الموت في البلقان.

منذ سنوات، كنت مسافرة بالقطار من «تريستا» إلى «فينيسيا»، وجدت نفسي أصبح وسيطًا روحانيًّا في العربة نفسها. كانت هي امرأة متزوجة تصغرني بسنوات قليلة، وكانت ترتدي قلنسوة صوفية. لم أعرف — بالطبع — أنها كانت وسيطًا، ولكنني، وعلى قدر ما جمعت من حديثها مع المرأة الجالسة بجوارها، فهمت ذلك.

وأثناء سفرنا عبر هضاب «كارسو» قالت: «تعرفين! عندما أمرُّ بهذه الهضاب أسمع أصوات الموتى، لا أستطيع أن أخطو خطوتين دون أن تصم أذني. كلهم يصرخون في رعب، وكلما كان الموتى من صغار السن يأتي صراخهم أعلى.»

واستمرت تشرح لرفيقتها أن الطقس يتغير إلى الأبد كلما وقع فعل من أفعال العنف، ويصبح الطقس صدئًا وثقيلًا ... وبدلًا من أن يُحدِث الصدأ شعورًا هادئًا، يشجع على مزيد من العنف. وفي النهاية قالت الوسيط: «العالم مثل الهامة مصاصة الدماء، بمجرد أن تتذوق طعم الدم لا بد أن تمص دمًا جديدًا، دمًا طازجًا، والمزيد منه ...» ومنذ سنوات، وأنا أتساءل ما إذا كانت هناك لعنة سرية مخبأة في هذه الأرض التي نعيش عليها!

سألتُ هذا السؤال في الماضي، وأسأله الآن، ولا أجد إجابة. هل تتذكرين كيف كان من عادتنا أن نتسلق جبال «مون روبينو»؟ عندما كانت تهب ريح الشمال الشرقية، كنا نقضي الساعات كلتانا تحدق في المشهد الطبيعي أمامنا، كأننا ننظر من الطائرة. كان لدينا مشهد من ثلاثمائة وستين درجة ... ونتنافس من فينا تستطيع أن تحدد — قبل الأخرى — موضع قمة ما في «الدولومايتس» أو مكان «جرادو دا فينيسيا».

والآن، وبعد أن أصبحت لا أستطيع الوقوف هناك، لا بد أن أغمض عيني لكي أرى المشهد ذاته. بفضل الذاكرة السحرية ... كل شيء يظهر أمامي وحولي، وكأنني أقف على قمة الجبل. يمكنني حتى أن أسمع الرياح، وأنشق شذى الفصل الذي أختار، أقف هناك ناظرة إلى الأعمدة الحجرية التي تآكلت بفعل الزمن، والمساحات الجرداء من الأرض، حيث

تقوم الدبابات بمناوراتها، والصخرة الجبلية الداخلة في البحر الأزرق عند «استريا»، وكلما نظرت إلى شيء حولي أسأل نفسي للمرة المليون: ماذا لو أن شيئًا لمس وترًا متنافرًا!

أحب هذا المنظر الطبيعي، وربما لذلك لا أستطيع أن أجيب عن السؤال. الشيء الوحيد الذي يمكن أن أكون متأكدة منه، هو أن الأشياء المرئية المحيطة ... تؤثر على شخصية كل من يعيش في المنطقة.

وإن كنتُ أحيانًا أبدو قاسية أو فظة، وإذا كنتِ أنت أيضًا، فإن «كارسو» هي المسئولة، بما فيها من تآكل وألوان ورياح تضربها مثل السياط. لو أننا — مثلًا — كنا قد ولدنا في تلال «امبريا»، كان يمكن أن نكون أقل حدة، ولربما كان الغضب والسخط قد اختفيا من طبيعتنا. هل كان ذلك أفضل؟ لا أعرف! لا يمكننا أن نتخيل حال الأمور التي لم نخبرها.

على أية حال، لا بد أنه كان هناك قدر من اللعنة في الجو اليوم، لأنني عندما دخلت المطبخ ... وجدت الطائر ميتًا على قطعة القماش. كان يبدو مهزولًا في الأيام الأخيرة، يأكل قليلًا، ويغفو بين لقمة وأخرى. ولا بد أن يكون الموت قد حدث قبل أول ضوء، لأنني عندما أمسكته بيدي كانت رأسه تتأرجح من جانب إلى آخر، وكأن زمبركًا قد انكسر في الجهاز. مسدت جسده لدقائق قبل أن ألفَّه في قطعة قماش، حاولت أن أدفئه قليلًا. في الخارج كان الهواء محملًا بثلج دقيق. أغلقت الباب على «باك» وخرجت. الآن ... أنا لست قوية لكي أحفر بالفأس، ولذا جرفت بعض التراب بحذائي في حوض الزهور في منطقة طرية، وضعت الطائر، وقبل أن أعود ردَّدت التراتيل التي كنا نرددها دائمًا عند دفن الطيور الصغيرة ... «يا رب ... فلتتقبل هذه الحياة الصغيرة كما تقبلت كل الأخريات!»

هل تتذكرين كم رعينا من طيور، وحاولنا إنقاذها عندما كنتِ صغيرة؟ بعد كل يوم عاصف كنا دائمًا نجد طائرًا جريحًا. كنا نبذل قصارى جهدنا لعلاجها، ولكن الجهود كانت تضيع عادة؛ فنجدها ميتة من يوم إلى آخر. كم كان يبدو الأمر مأساويًّا! وبصرف النظر عن كيفية حدوث ذلك فقد كنتِ دائمًا مستاءة. «بعد انتهاء الدفن تجففين أنفك وعينيك براحة يدك، ثم تذهبين وتغلقين عليك باب غرفة نومك لكي تتغلبي على ذلك.»

وذات يوم سألتِني كيف سنجد أمك؟ فالسماء كبيرة، وقد يضل الناس طريقهم فيها. قلت لك إن السماء مثل فندق كبير، لكلٍّ غرفته الخاصة فيه، والذين كانوا يحبون بعضهم البعض على الأرض، يجدون أنفسهم في الغرفة نفسها بعد الموت، ويعيشون معًا إلى الأبد، وظل هذا التفسير مقنعًا لكِ فترة من الوقت، ولكن بعد أن ماتت سمكتك الرابعة، عدتِ للسؤال نفسه، وقلتِ: «وماذا لو لم يكن هناك مكان كافٍ؟»، قلت: «عليكِ أن تغمضي عينيك، وترددي لمدة دقيقة ... أيتها الغرفة اتسعي ... اتسعي ... ولسوف تتسع في الحال.»

هل ما زلتِ تتذكرين تلك الخيالات الطفولية؟ أم ترى محارتك قد طردتها؟ كنتُ قد نسيتُ ذلك حتى قمت بدفن الطائر الأسود اليوم. «اتسِع أيها المكان!» يا له من سحر! فعلًا، مع أمك و«الهمستر» والعصافير وأسماك الزينة، ستصبح غرفتك مزدحمة بالفعل مثل مدرجات الكرة. قريبًا جدًّا ... سأذهب أنا أيضًا إلى هناك، هل تريدينني في غرفتك؟ أم سيكون عليَّ أن أستأجر غرفة أخرى قريبة منك؟ هل سيمكنني أن أدعو الشخص الذي كان أول حب في حياتي؟ هل سيمكنني أن أقدمك إلى جدك الحقيقي أخيرًا؟

ما هي الأفكار والصور التي كانت في ذهني عندما نزلتُ من القطار في «بوريتا» في ذلك المساء من سبتمبر؟ لا شيء بالمرة! كانت رائحة أشجار اللوز تملأ المكان، وكان همي الوحيد هو أن أجد «البنسيون» الذي حجزت غرفة فيه. كنت ما أزال ساذجة، وليس لديَّ فكرة عن ألاعيب القدر القاسية. لو أنني كنت مقتنعة بأي شيء على الإطلاق فلا بد أن يكون ذلك بفضل قوة الإرادة، رغم كل ما حدث لي، سواء كان جيدًا أو لا. لحظة أن هبطت من القطار إلى الرصيف ... اختفت قوة الإرادة. لا أريد شيئًا. أو لعله شيء واحد ... وهو أن يتركوني في سلام!

قابلت جدك في أول مساء. كان يتناول العشاء مع رجل آخر في «البنسيون» الذي نزلت به ... وباستثناء شخص آخر، لم يكن هناك أحد في غرفة الطعام. كان يتناقش في السياسة بحدة، وأثار صوته الحاد أعصابي. نظرت إليه — عمدًا — نظرتين قاسيتين أثناء الأكل، ولك أن تتخيلي كم كانت دهشتي عندما اكتشفت في الصباح التالي أنه طبيب المنتجع!

راح، لمدة عشر دقائق، يسألني عن حالتي الصحية، ثم حدث شيء شديد الإحراج، عندما بدأت أخلع ملابسي انهمر العرق غزيرًا مني كأنني أقوم بمجهود شاق. قال وهو يستمع إلى دقات قلبي: «يا إلهي! كم أنت خائفة! مرعوبة!»، وانفجر ضاحكًا، وبشكل متقطع. عندما قاس ضغط الدم ارتفع الزئبق إلى أعلى مستوى، وسألني إن كنت أعاني من ارتفاع في الضغط. كنت غاضبة من نفسي، وأقول لنفسي — مرارًا وتكرارًا — إنه ليس هناك ما أخشاه، وإنه مجرد طبيب يؤدي عمله، وإن وصولي إلى هذه الحال ليس طبيعيًّا ولا يليق! ورغم ذلك كله لم أهدأ. ثم أعطاني ورقة بنظام الغذاء، وصافحني، وهو يقول: «استريحي، واسترخي، وإلا فإن المياه الكبريتية لن تفيدك.»

في المساء نفسه، بعد العشاء، جاء وجلس على طاولتي.

وفي اليوم التالي كنا نتجول معًا في المدينة ... ونثرثر.

الحيوية والطيش اللذان أزعجاني، أصبحا الآن مصدر جاذبية بالنسبة لي. كان هناك عاطفة وحماس في كل ما يقول، وكان من المستحيل أن أكون قريبة منه ولا ينتقل إليَّ دفء كل عبارة ينطق بها، ودفء حضوره.

كنت قد قرأت — منذ وقت بعيد — في جريدة ما، أن الحب، حسب أحدث النظريات، لا ينبع من القلب وإنما من الأنف ... عندما يلتقي اثنان، وينجذبان كلاهما إلى الآخر، يبدأ انطلاق هرمونات صغيرة من كليهما — نسيت اسمها — تدخل فتحتي الأنف وتصعد إلى المخ، ثم في ركن سري منه تثير عواصف الأحاسيس والمشاعر. وانتهت المقالة — باختصار — إلى أن الأحاسيس والمشاعر ليست سوى روائح غير مرئية.

يا له من هراء! إن أي شخص شعر بحب حقيقي ذات يوم، بحب لا يمكن قياسه أو وصفه، يعرف أن تلك العبارة ليست سوى واحدة من تلك المحاولات العديدة المبتذلة لتشويه سمعة القلب. أنا لا أنكر أبدًا أن رائحة الشخص الذي تحبين يمكن أن تثير أحاسيس ومشاعر كثيرة، ولكن الأحاسيس والمشاعر لكي تستثار لا بد أن يكون شيء ما قد حدث بالفعل، شيء ... أنا واثقة أنه مختلف تمامًا عن أن يكون مجرد رائحة.

عندما كنت مع «إرنستو» في تلك الأيام، كان لديَّ إحساس للمرة الأولى في حياتي أن جسدي ليس له حدود. كنت أشعر أن حولي هالة غير محسوسة، وكأن حدود جسدي قد نمت وكبرت، وأن ذلك النمو يتذبذب في الهواء كلما تحركت. تعرفين ما يحدث للنباتات التي لم تُروَ لبعض الأيام؛ الأوراق تصبح رخوة، وبدل أن ترفع نفسها نحو الضوء تتدلى كأذني أرنب حزين.

حسن! كانت حياتي على مدى السنوات السابقة مثل نبات لم يُرو، كان الندى في الليل كافيًا لكي يحفظ الحياة ... ولا شيء آخر. كنت أستطيع أن أقف منتصبة ... ولا أكثر! ولكنك في حاجة لري النبات مرة لكي ينتعش، ولكي ترفع الأوراق رأسها مرة أخرى. حدث ذلك لي في الأسبوع الأول. بعد ستة أيام من وصولي نظرت في المرآة فرأيت شخصًا آخر. كان جلدي أنعم وأطرى، وعيناي أكثر بريقًا، ثم بدأت أغني بينما كنت أرتدي ثيابي ... وهو شيء لم أفعله منذ كنت طفلة.

عندما تشاهدين ذلك من الخارج من المحتمل أن تتصوري أن تحت كل ذلك الشعور بالبهجة، لا بد من وجود بعض القلق والتمزق وعدم الثقة بالنفس. كنتُ قبل كل شيء، امرأة متزوجة، فكيف أقبل رفقة رجل آخر، هكذا بكل ذلك الجذل؟

بالعكس، لم أكن أشعر بأي شك في نفسي، ولم تنتبني أية هواجس، وليس ذلك لأنني كنت ليبرالية التفكير، وإنما لأن ما كان يحدث لي كان يتعلق بجسدي ... جسدي فقط!

كنت مثل جرو صغير ظل هائمًا في شوارع المدينة عدة أيام في الشتاء البارد، ثم وجد جحرًا دافئًا، لم يسأل أسئلة، وإنما يتكور على نفسه وينام. إلى جانب أن رأيي في جمالي كأنثى لم يكن عاليًا، ولم يطرأ على بالي أبدًا أن رجلًا قد يراني ملفتة أو جذابة على أي نحو.

وبينما كنت في طريقي إلى الكنيسة في أول يوم أحد، توقف «إرنستو» بسيارته جواري: «إلى أين أنت ذاهبة؟» سألني وهو يطل من شباك سيارته، وبمجرد أن أخبرته، فتح الباب وهو يقول: «صدقيني ... إن الله سيكون أكثر سعادة إذا جئت معي في جولة في الغابات بدل الذهاب للكنيسة!»

وفي نهاية طريق طويل ملتفٍّ، وصلنا إلى بداية ممر ضيق بين أشجار اللوز. لم يكن الحذاء الذي ألبسه مناسبًا للسير في الطرق الوعرة، فكنت أتعثر باستمرار. وعندما أخذ يدي، بدا ذلك أكثر الأشياء طبيعية في العالم. مشينا طويلًا، ونحن صامتان. الجو مشبع برائحة الخريف والأرض رطبة، ومعظم أوراق الشجر صفراء يتخللها ضوء مختلف ألوانه. بعد فترة وصلنا إلى مساحة خالية تقف في وسطها شجرة لوز ضخمة. تذكرت شجرة البلوط عندما كنت طفلة ... فذهبت إليها، وبدأت ألمسها بيدي، ثم وضعت خدي عليها. بعد لحظة، كان «إرنستو» يضع خده بجوار خدي، لم تكن عينانا قريبتين هكذا منذ أن تعارفنا.

في اليوم التالي لم تكن لديَّ رغبة أن أراه، كانت الصداقة تتطور إلى شيء آخر، وكنت في حاجة لوقت للتفكير.

لم أكن طفلة صغيرة، وإنما امرأة متزوجة، بمسئوليات المرأة المتزوجة، وهو أيضًا كان متزوجًا، والأكثر من ذلك أن له ابنًا. كنت قد توقعت كيف ستكون حياتي حتى الشيخوخة، والحقيقة أن شيئًا مما كان يحدث الآن، على عكس كل تلك التوقعات، لم يقلقني كثيرًا، لم أكن أعرف ماذا أفعل؛ اللامتوقع يكون مزعجًا في البداية ... ولكن لا بد من التغلب على الخوف لكي تستمري.

أحيانًا كنت أرى ذلك عبثًا، وأنني لا بد أن أنسى ما حدث، أن أمحو القليل الذي حدث حتى الآن ... ثم بعد لحظة أقول لنفسي ... سيكون الأمر أكثر عبثًا لو توقفت الآن ... وبعد أن أصبحت حية للمرة الأولى منذ طفولتي، بعد أن أصبح كل شيء ينبض ... حولي وفي داخلي ... وكانت فكرة التخلي عن ذلك كله تبدو مستحيلة. بالطبع كانت لديَّ هواجس! الشك الذي يحدث — أو الذي يحدث عادة — لكل امرأة ... وهو أنه كان يقودني ... كان يريد أن يسلي نفسه ولا أكثر!

كانت تلك الأفكار تطن في رأسي عندما أجلس بمفردي في تلك الغرفة الحقيرة المستأجرة. وفي الليلة التالية لم أستطع النوم قبل الرابعة؛ كنت متوترة وقلقة. ورغم ذلك، لم أكن أشعر بأي تعب في الصباح، وبدأت أغني وأنا أرتدي ملابسي. حب جارف للحياة ملأ كياني كله في تلك الساعات القليلة. في اليوم العاشر من وجودي هنا أرسلت بطاقة بريدية إلى «أوجستو»: «الجو هنا رائع، الطعام معقول، أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام.» وأرسلت إليه قبلة محبة. كنت قد قضيت الليلة السابقة مع «إرنستو».

في تلك الليلة، أصبحت على وعي بوجود عدة منافذ صغيرة بين الروح والجسد. عندما تكون مفتوحة، يمكن أن تتدفق المشاعر من خلالها. وإذا كانت مواربة ... يمكن أن تقطر المشاعر قليلًا! الحب فقط هو القادر على فتحها كاملة ... مثل عصفة ريح عنيفة.

لم نفترق طوال الأسبوع الأخير من إقامتي في «بوريتا»، كنا نخرج للتمشية مسافات طويلة، ونتكلم حتى تجف حناجرنا.

يا له من فرق بين أسلوب «إرنستو» وأسلوب «أوجستو»! كل ما هو «إرنستو» عاطفة متقدة وحماس! كان يستطيع أن يتكلم عن أكثر الموضوعات تعقيدًا ببساطة تامة.

كنا — عادة — نتكلم عن الله، واحتمال أن يكون هناك شيء وراء الواقع المادي. كان قد حارب في صفوف المقاومة، وواجه الموت أكثر من مرة، وجعلته لحظات كتلك يفكر في وجود كائن أعلى، ليس بدافع الخوف، وإنما من إحساس بوعي كبير. قال: «أنا أتجنب الطقس الكنسي، لا أذهب أبدًا إلى أي مكان للعبادة، ولن أومن بأية أفكار دينية جامدة، ولا بقصص اخترعها رجال لا يختلفون عني في شيء.»

كلانا كان يأخذ الكلمات من فم الآخر، يفكر الأفكار نفسها ويعبِّر عنها بالطريقة نفسها. وكأن كلينا يعرف الآخر منذ سنوات، وليس من أسبوعين. لم يكن هناك سوى وقت قليل أمامنا، وفي تلك الليالي كنا ننام معًا ... نغفو قليلًا لمجرد استعادة طاقتنا ... أصبح «إرنستو» متحمسًا لفكرة «المقدَّر والمكتوب». قال: «في حياة كل رجل هناك امرأة واحدة فقط يمكن أن يحقق معها التوحد التام، وفي حياة كل امرأة هناك رجل واحد فقط يمكن أن تكتمل به.»

إلا أن قلة قليلة من هؤلاء هم المقدر لهم أن يلتقوا بعضهم البعض، والبقية مجبرون على الحياة غير راضين، وفي حالة شوق دائم. سأل في ظلام الغرفة: «كم لقاء مثل هذا حدث؟ واحد في الألف؟ واحد في المليون؟ واحد كل عشرة آلاف؟ نعم، واحد كل عشرة آلاف. اللقاءات الأخرى كلها تسويات ... جاذبية سطحية وطرفية، تقارب فيزيائي أو تناغم

شخصيات، عقد اجتماعي!» وبعد أن وصل إلى هذه النتيجة لم يقل شيئًا سوى ترديد ... «ألسنا محظوظين؟! ألسنا محظوظين؟ أتساءل ... ماذا وراء ذلك كله؟ من يعرف؟»

يوم سفري، وعندما كنا ننتظر القطار معًا في المحطة الصغيرة، ضمني إلى صدره، وهمس في أذني: في أية حياة سابقة التقينا؟ قلت: «في كثير»، ورحت أبكي! وفي حقيبة يدي كان لديَّ عنوان أكتب عليه في «فيرارا».

لن أحاول حتى أن أصف مشاعري أثناء ساعات الرحلة الطوال. كنت مضطربة، «وحيدة في مواجهة العالم بأسره». كنت أعرف أنني لا بد أن أتحول إلى مسخ في تلك الساعات، لذا رحت أتحرك جيئة وذهابًا إلى الحمام لكي أتأكد من تعبيرات وجهي. كان لا بد أن يختفي لمعان عيني، وأن تذوي ابتسامتي. تورُّد خدي سيكون هو الدليل الباقي على الأثر الجيد للهواء عليَّ. وجد والدي و«أوجستو» أن التحسن كان غير عادي. «قلت لك إن المياه ستفيدك»، ظل أبي يكرر ذلك، بينما راح «أوجستو» يحيطني باهتمامات صغيرة للمرة الأولى في حياته.

عندما تجربين الحب للمرة الأولى، ستفهمين كيف تكون الآثار مختلفة وغريبة. وعندما لا تكونين في علاقة حب مع أحد، عندما يكون قلبك حرًّا، وعيناك لا تبحثان عن عيني شخص آخر من بين كل من ترين من الرجال الذين يبدون جذابين ... لن يهتم بك أحد. لحظة أن يطلبك شخص واحد، ولا أحد غيره، لحظة مهمة. سيبدأ الرجال يركضون وراءك، ويهمسون بتفاهات حلوة ... ويتوددون إليك. إنها تلك المنافذ الصغيرة التي كنت أحكي لك عنها، وهي التي تُحدِث ذلك الأثر. عندما تفتح يلقي الجسد بضوء ساطع على الروح، والروح على الجسد، يضيء كل منهما الآخر بنظام المرايا، وسرعان ما تتكوَّن هالة ذهبية دافئة حولك، تجذبهم كما تجذب الدببة إلى النحل.

لم يكن «أوجستو» استثناء، وربما يبدو لك غريبًا أنني لم أكن أجد صعوبة في الاستجابة بحنان. بالطبع لو كان «أوجستو» رجل حياة أكثر من ذلك، أكثر ذكاء، لأدرك ما حدث. وللمرة الأولى منذ تزوجنا أجد نفسي ممتنة لحشراته المقززة!

هل كنت أفكر في «إرنستو؟» بالتأكيد! ولكنني فعلت أشياء أخرى قليلة. وإن كان «التفكير» ليس هو الكلمة المناسبة. بدل التفكير، كنت موجودة من أجله، وكان في داخلي، في كل حركة، في كل فكرة، كنا شخصًا واحدًا.

عندما افترقنا اتفقنا على أن أكتب أنا أولًا، وقبل أن يكتب هو كان عليَّ أن أجد صديقة أثق بها يرسل خطاباته إليَّ على عنوانها. أول رسالة كتبتها له كانت في آخر شهر أكتوبر. كانت الفترة التالية لذلك هي الأسوأ في علاقتنا. ليست حتى الأعظم، معظم الحب الكامل

يمكن أن يكون خلوًّا من الشك، عندما يكون المحبون بعيدين عن بعضهم الآخر. كنت أستيقظ كل صباح فجأة، والجو ما يزال ظلامًا في الخارج، وأرقد بلا حركة ... صامتة بجوار «أوجستو».

كانت تلك هي اللحظات الوحيدة عندما لا يكون ضروريًّا أن أخفي مشاعري. فكرت في تلك الأسابيع الثلاثة، وماذا لو كان «إرنستو» مجرد شخص مغوٍ، وبسبب الملل في ذلك المنتجع كان معتادًا على تسلية نفسه مع امرأة وحيدة؟ كلما طال انتظاري لرسالته التي لم تأت كان شكي يتحول إلى يقين. قلت لنفسي ... حسن! حتى لو ظهر أن الأمر كذلك، حتى لو كنت قد تصرفت مثل أية امرأة ساذجة، فإن التجربة لم تكن سلبية ولا عديمة الفائدة. لو لم أذهب إلى هناك، لتقدمت في العمر دون أن أعرف شيئًا عن مشاعر المرأة. كان هناك معنى، أرأيت؟ أحاول فيه أن أحمي نفسي، أن أخفف من وطأة الضربة.

لاحظ أبي و«أوجستو» تزايدًا في انحراف مزاجي، كنت أدير أكرة الباب بلا سبب، وأترك الغرفة عندما يدخل أيهما.

كنت أريد أن أكون وحدي، فكرت في الأسابيع التي قضيناها معًا، أخضعتها لتفحص دقيق ... دقيقة بدقيقة ... في محاولة لأن أجد مفتاحًا للغز، لأن أجد شيئًا يمكنني من اتخاذ قرار مرة، وإلى الأبد. كم استمر العذاب؟ ستة أسابيع؟ شهرين؟ تقريبًا. وأخيرًا، في الأسبوع السابق للكريسماس، وصل الخطاب إلى منزل صديقتي. خمس صفحات مغطاة بيد شديدة التدفق. نفسيتي الجيدة، وروحي المرحة عادتا إليَّ على الفور. الكتابة إليه، وانتظار ردوده جعلت الشتاء يمر سريعًا ... وكذلك الربيع. التفكير الدائم في «إرنستو» غيَّرَ إحساسي بالزمن. كانت كل طاقاتي مركزة على مستقبل غير محدد الملامح ... على اللحظة التي أراه فيها مرة أخرى.

عمق الإحساس في خطابه أراح ذهني بخصوص الحب المشترك بيننا. كان حبًّا كبيرًا ... عظيمًا ... ومثل كل علاقات الحب الحقيقية لم يكن متأثرًا بأحداث دنيوية. قد يبدو غريبًا لك ألا يكون الانفصال الطويل قد جعلنا تعسين، ولن يكون صحيحًا إذا قلت لك إننا لم نكن نعاني بالمرة. كلانا قاسى من الانفصال الاضطراري، لكن مشاعر أخرى كانت مختلطة بالألم، وتوقع أن نلتقي ثانية كان يدفع ألم الانفصال إلى الخلفية ... يجعله يتقهقر.

كلانا ناضج ومتزوج، وكلانا كان يعرف أن الأشياء لا يمكن أن تكون إلا هكذا. لو كان ذلك قد حدث في تلك السنوات الأخيرة لكان من الممكن أن أطلب من «أوجستو» الانفصال قبل مرور شهر، كان يمكن أن ينفصل عن زوجته، ونعيش في المنزل نفسه قبل الكريسماس. هل كان ذلك أفضل؟ لا أعرف. في قرارة نفسي لا أستطيع أن أتغلب على فكرة

أن العلاقات عندما تكون سهلة، يصبح الحب تافهًا، وتنخفض حدة العاطفة لتصبح خيالًا عابرًا. تعرفين ما يحدث للكعكة عندما لا تكون الخميرة ممزوجة ومنتشرة جيدًا، بدل أن تخمر وترتفع كلها، تقب العجينة من جانب واحد، أو تتشقق تاركة الخليط يتسرب من القالب مثل مجرى الحمم؛ هكذا قراءة الحب ... تفيض.

أن يكون لك حبيب، ويمكنك رؤيته لم يكن أمرًا سهلًا في تلك الأيام. كان الأمر أكثر سهولة بالنسبة لإرنستو، طبعًا، لأنه — كطبيب — كان يمكن أن يختلق موعدًا، مؤتمرًا، حالة طارئة. أما بالنسبة لي، واحدة ليس لديها أي نشاط سوى عملها كربة بيت، فقد كان الأمر مستحيلًا. كان عليَّ أن أخترع عذرًا، سببًا للغياب بضع ساعات أو حتى أيامًا دون إثارة الريبة. لذا، التحقت، قبل عيد القيامة، بنادٍ لهواة الثقافة الرومانية. كان الأعضاء يجتمعون أسبوعيًّا، ويقومون برحلات إلى أماكن ذات أهمية ثقافية. «أوجستو» لم يشك في شيء لأنه كان يعرف حبي للغات القديمة، ولم يكن هناك سبب لانتقاد ذلك؛ كان سعيدًا أن يراني أجدد اهتمامًا قديمًا من اهتماماتي. جاء الصيف سريعًا ذلك العام، وفي نهاية يونيو ترك «إرنستو» المنزل من أجل موسم المنتجع الكبريتي، كما كان يفعل كل عام، أما أنا فذهبتُ إلى الشاطئ مع والدي وزوجي.

في خلال ذلك الشهر استطعت أن أقنع «أوجستو» بأنني كنت ما زلت أريد طفلًا، وفي الصباح الباكر يوم واحد وثلاثين أغسطس أوصلني بالسيارة — حاملة الحقيبة نفسها، مرتدية الملابس نفسها مثل العام الماضي — إلى المحطة لكي أستقل القطار إلى «بوريتا». كنت في حالة قلق طوال الرحلة. لم أهدأ دقيقة واحدة. كنت أرى المنظر الطبيعي ذاته ... المنظر الذي رأيته في العام الماضي من نافذة القطار ... إلا أن كل شيء كان مختلفًا.

أمضيت في المنتجع ثلاثة أسابيع، وفي تلك الأسابيع الثلاثة عشت بعمق ... أكثر مما عشت كل سنوات عمري. ذات يوم وأنا أتمشى وحدي في الحديقة عندما كان «إرنستو» مشغولًا بعمله، تخيلت كم يكون رائعًا أن أموت في تلك اللحظة. قد يبدو ذلك غريبًا، ولكن السعادة القصوى مثل التعاسة القصوى ... تطلق دائمًا تلك الرغبات المتناقضة!

شعرت وكأنني أسير في طريق ضيقة في الغابة، منذ سنوات وسنوات، وكان عليَّ أن أشق طريقي عبر الشجيرات والأعشاب التحتية بمنجلٍ، ولا أرى سوى ما هو أمامي مباشرة ... لا أعرف إلى أين أنا ذاهبة، ولا ما هو أمامي، كان يمكن أن يكون هاوية، مدينة كبيرة ... أو صحراء ... ثم قمت فجأة لأجد أنني — دون أن أدرك — كنت أصعد متسلقة ... وأنني أقف الآن على قمة تل.

كانت الشمس قد أشرقت لتوها، وبدت التلال الأخرى بألوانها المختلفة متجهة صوب الأفق. كل شيء مغلَّف بزرقة ضبابية. نسيم خفيف يتلاعب على القمة، القمة ورأسي، رأسي والأفكار في داخلها. بين حين وآخر، يصدر صوت من الوديان تحتي، نباح كلب ... رنين جرس.

لم تكن لديَّ رغبة في النزول ثانية، النزول إلى الأرض. كنت أريد أن أغمر نفسي في الضباب الأزرق، وأبقى هناك إلى الأبد، وستكون حياتي — حينذاك — هي لحظة الذروة في وجودي.

كنت ما زلت أفكر في ذلك عندما التقيت بإرنستو في المساء. لم أجرؤ على إثارة الموضوع على العشاء خوفًا من أن يضحك ساخرًا مني. بعد ذلك عندما لحق بي في غرفتي، وعندما أحاطني بذراعيه، وضعت شفتي بالقرب من أذنه، وهممت أن أقول «أريد أن أموت» ... وبدل ذلك، قلت: «أريد طفلًا.»

عندما غادرت «بوريتا» كنت أعرف أنني حامل، وأعتقد أن «إرنستو» كان يعرف، لأنه في الأيام القليلة الأخيرة كان يبدو مضطربًا ومرتبكًا، وينتابه الصمت كثيرًا.

بدأ جسمي يتغير منذ الصباح الأول بعد الحمل. أصبح صدري فجأة أكثر امتلاء ... وثباتًا، وبشرتي أكثر نضارة؛ أمر مدهش! كيف يتأقلم المرء بسرعة ليتلاءم مع الحالة الجديدة! لذلك أقول إنه حتى بدون اختبار حمل، ورغم أن بطني كانت مسطحة كما كانت دائمًا، إلا أنني كنت أعرف جيدًا ما حدث. كنت أشعر أنني مليئة بالإشعاع، بدأ جسدي يضبط نفسه ويتكيف ... يبدأ في التمدد، ويصبح مشربًا بالقوة، لم أشعر أبدًا بشيء مثل ذلك من قبل.

عندما كنت وحيدة في القطار، طاف بذهني مزيد من الأفكار الكئيبة. عندما كنت مع «إرنستو» لم أشك أبدًا أنه سيكون لي طفل. «أوجستو»، حياتي في «تريستا»، الثرثرة المحلية ... كان ذلك كله يبدو بعيدًا. والآن رغم أن الدنيا كانت تضيق، ومع سرعة تطور الحمل أصبح عليَّ أن أتخذ قرارات بسرعة، وأن ألتزم بها بمجرد اتخاذها. أدركت أنني لو قمت بعملية إجهاض — على العكس — سيكون ذلك أكثر صعوبة من إنجاب الطفل. ولن يخفى ذلك على «إرنستو»، وكيف يمكن أن أفسر ذلك، وأنا التي صممت منذ وقت طويل على الإنجاب؟ إلى جانب أنني لم أكن أريد أن أجري عملية إجهاض. لم يكن المخلوق الصغير الذي ينمو بداخلي غلطة يجب تصحيحها عند أول فرصة، كان تحقق رغبة، وربما أعمق رغبة شعرت بها في حياتي.

عندما تحبين رجلًا، عندما تحبينه بكل جسدك وروحك، لا يكون هناك ما هو أكثر طبيعية من الرغبة في إنجاب طفل، ليست تلك رغبة يمليها الذكاء، ليست خيارًا عقليًّا.

قبل أن التقى بـ «إرنستو» كنت أتخيل أنني قد أحب أن يكون لي طفل، وكنت أعرف بالضبط لماذا أريده، وأدرك كل إيجابيات وسلبيات ذلك. كان ذلك هو الخيار العقلاني، ولكنني كنت أريد طفلًا لأن الحياة كانت تمضي بي وحيدة ... وحيدة جدًّا ... ولأنني امرأة ... والنساء إن لم يفعلن شيئًا آخر فلينجبن على الأقل! لو كنت أشتري سيارة لطبقت المعايير نفسها! ولكن ... في تلك الليلة عندما قلت لإرنستو إنني كنت أريد طفلًا كان الأمر مختلفًا. كان ذلك قرارًا يطير في وجه الآراء البديهية، إلا أنه كان أقوى من كل الحجج التي قد تمليها الفطرة السليمة. بالإضافة إلى أنكِ عندما تفكرين في ذلك لا تجدين هنا قرارًا ... تجدين مجرد رغبة مسعورة، حادة، لامتلاك الأبدية. كنت أريد «إرنستو» بداخلي، معي، بالقرب مني إلى الأبد. والآن عندما تقرئين كيف تصرفتُ ربما ترتعدين رعبًا، وتسألين نفسك: كيف فشلت في ألا تلاحظي أنني كنت أخفي جانبًا من طبيعتي ... خسيسًا ... حقيرًا كهذا!

عندما وصلت إلى محطة «تريستا» فعلت الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع أن أفعله، وهو أن أبدو كزوجة رقيقة محبة لزوجها. كان «أوجستو» مدهوشًا للتغيُّر الذي طرأ عليَّ، وبدل أن يبحث عن تفسير؛ أصبح مشاركًا مستعدًّا لذلك.

بعد شهر، كان مقبولًا تمامًا أن يكون الطفل طفله. يوم أعلنت نتيجة اختبار الحمل عاد في الظهيرة إلى المنزل، وقضى اليوم كله معي يفكر في التعديلات التي سيجريها على المنزل استعدادًا لوصول الطفل. عندما صرخت بالخبر في أذن والدي؛ أخذ يدي في يديه الجافتين، ووقف فترة، كانت عيناه حمراوين دامعتين ... منذ سنوات كان صَممه يشكل حاجزًا بينه وبين كثير مما يدور حوله. وكانت أحاديثه مثل نوبات انفجارية مفاجئة، تتخللها فترات صمت طويلة، ومفاجئة أيضًا، بين عبارة وأخرى مليئة بشظايا ونثارات من ماضٍ، ليس له علاقة بأي شيء. وبدل أن تهزني دموعه أثارت فيَّ إحساسًا ساخرًا بالمقت، لا أعرف لماذا؟! رأيتها مجرد إيماءة ... وليس أكثر. ولكنه لم ير حفيدته. مات وهو نائم، بلا ألم، عندما كنت في شهري السادس من الحمل. عندما رأيته مُسجى في التابوت، صدمني كيف كان ذابلًا ومرهقًا، كان على وجهه التعبير نفسه ... كان متباعدًا ... محايدًا!

كتبت إلى «إرنستو» طبعًا بمجرد أن عرفت نتيجة الاختبار، وجاءني الرد في أقل من عشرة أيام. انتظرت عدة ساعات قبل أن أفتح خطابه. كنت مضطربة، أخشى أن يكون به شيء غير مريح. كنا في آخر النهار، عندما استجمعت شجاعتي، وأغلقت عليَّ دورة مياه في

أحد المقاهي لأفعل ذلك في هدوء. كانت كلماته رزينة ومعقولة. كتب: «لست متأكدًا إن كان ذلك هو أفضل ما يمكن عمله، ولكنه قرارك وأنا أحترمه.»

الآن، وبعد أن حُلَّت جميع المشكلات، بدأت تحضيرًا هادئًا للأمومة. هل كنت أشعر بأنني حيوان غريب؟ هل كنت فعلًا حيوانًا غريبًا؟ لا أعرف! أثناء فترة الحمل، ولعدة سنوات بعد ذلك، لم أكن أعاني من شك أو ندم.

كيف استطعت أن أتظاهر بحب شخص بينما أحمل في رحمي طفل شخص آخر أحبه بالفعل؟ الأمور ليست بهذه البساطة، ليست أبدًا أبيض وأسود. الأشياء ألوان وظلال مختلفة. لم يكن صعبًا عليَّ — أبدًا — أن أكون لطيفة وحنونة مع «أوجستو» لأنني كنت بالفعل معجبة به، كنت أحبه بطريقة مختلفة تمامًا عن طريقة حبي لإرنستو؛ لم يكن حب امرأة لرجل، بل لعله حب أخت لأخ أكبر … ممل!

لو كان شريرًا على أي نحو لاختلفت الأمور، ولما كنت قد تمنيت أن يكون لي طفل، ولا أن أعيش معه تحت سقف واحد. ولكنه كان منهجيًّا جدًّا، وتنبؤيًّا جدًّا، إلى جانب كونه طيبًا ولطيفًا. كان سعيدًا بخصوص الطفل، وكنت سعيدة أن أحمله من أجله. فأي دافع كان هناك لأن أكشف سري؟ كان ذلك من شأنه أن يحطم حياة ثلاثة أشخاص؛ على الأقل كان ذلك ما فكرت فيه آنذاك.

في أيامنا هذه، أيام الحرية والاختيار، قد يبدو ما فعلته مروعًا، ولكن في ذلك الوقت، كانت الظروف عادية جدًّا. لا أقول إن ذلك قد حدث لكل اثنين متزوجين، ولكنه لم يكن شيئًا نادرًا أن تحمل امرأة خارج إطار الزوجية. وماذا يحدث؟ كما حدث لي تمامًا … لا شيء.

ووُلِد الطفل، ونما، كما ينمو الأطفال الآخرون في أي أسرة، ووصل إلى مرحلة بلوغ لم يشبها أي شك. في ذلك الوقت كانت الأسرة كيانًا متماسكًا، وما كان ليحطمها وجود طفل مختلف عن الآخرين، وهذا ما حدث في حالة أمك. بمجرد أن وُلِدت كانت ابنتي أنا و«أوجستو». كان أهم اعتبار بالنسبة لي هو أن «إيلاريا» كانت ثمرة حب، وليست ثمرة مصادفة أو عقد اجتماعي أو ضجر؛ وهذا، كما كنت أعتقد، يمكن أن يشفع لأية مشكلة أخرى، كم كنت مخطئة!

في السنوات القليلة الأولى، سارت الحياة عادية دون مشاكل كبيرة. عشت من أجلها، أو كنت أظن ذلك، وكنت مغرمة بها، مراعية لها. منذ أول صيف في حياتها اعتدت أن أمضي أشد أشهر السنة حرارة مع الطفلة على ساحل الأدرياتيكي. استأجرنا منزلًا، وكل أسبوعين أو ثلاثة كان «أوجستو» يجيء ليقضي معنا عطلة نهاية الأسبوع.

رأى «إرنستو» ابنته للمرة الأولى على ذلك الشاطئ، كان عليه أن يتظاهر بأنه شخص غريب تمامًا بالطبع، وهو يسير على الشاطئ «يتصادف» أن يسير بالقرب منا ... يختار مقعدًا تظلله شمسية على بُعد خطوات قليلة، ومن هناك (عندما لا يكون أوجستو معنا) يظل يراقبنا بالساعات أثناء تشاغله بكتاب أو جريدة.

وفي المساء، كان يكتب لي رسائل طويلة، يصف فيها كل ما كان يدور برأسه ومشاعره نحونا، وكل ما رأى. في الوقت نفسه — تقريبًا — أنجبت زوجته طفلًا، طفلهما الثاني، وكان قد استقال من عمله الموسمي في المنتجع، وأنشأ عيادته الخاصة في «فيرارا»، مدينته الأصلية. أثناء السنوات الثلاث الأولى في «فيرارا» لم نلتق، باستثناء تلك المقابلات التي تبدو مصادفة.

كنت مسكونة بالطفلة، أمشي كل صباح سعيدة لعلمي أنها كانت موجودة، لا أستطيع أن أركز على شيء آخر مهما حاولت.

قبل مغادرتي بقليل في نهاية إقامتي الثانية في المنتجع، اتفقنا أنا و«إرنستو»، عقدنا ميثاقًا. قال: «كل مساء ... في الحادية عشرة تمامًا، أينما أكن، ومهما كانت الظروف ... سأخرج وأبحث عن الشعرى اليمانية، إذا فعلت الشيء نفسه، حتى ولو كنا بعيدين، بعيدين جدًّا ... حتى لو لم نكن قد رأينا بعضنا منذ وقت بعيد، ولا يعرف كلانا ماذا يفعل الآخر، فسوف تلتقي أفكارنا هناك، وسوف نكون قريبين.»

وخرجنا إلى شرفة «البنسيون»، ومن هناك كان يتتبع مسارًا بإصبعه عبر النجوم ... وأراني الشعرى اليمانية، تلمع بين الجوزاء ومنكب الجوزاء!

١٢ ديسمبر

استيقظت ليلة الأمس على ضوضاء مفاجئة، ومرَّ وقت قبل أن أدرك أنه كان التليفون. عندما قمت من السرير كان يرن منذ وقت، وبمجرد أن وصلت إليه ... كفَّ عن الرنين. ورغم ذلك رفعت السماعة ... «هالو!» ثلاث أو أربع مرات بصوتٍ نعسان، ثم بدل أن أعود إلى السرير جلست على كرسي جوار التليفون. هل كان أنتِ؟ من يا ترى؟ هزَّني ذلك الصوت في منتصف الليل، تذكرت قصة كانت صديقة لي قد روتها منذ سنوات قليلة. كان زوجها في المستشفى منذ فترة، ولكنها لم تكن معه يوم وفاته، بسبب تعليمات المستشفى الصارمة. في تلك الليلة، كانت في حال سيئة، ولم تستطع أن تنام، وبينما هي مستلقية في الظلام، سمعت رنين التليفون، وبالطبع أصابتها دهشة، متصورة أن ليس من المعقول أن يتصل بها أحد في مثل تلك الساعة المتأخرة لكي يعزيها. وعندما مدَّت يدها نحو التليفون صدمها شيء غريب ... جدًّا! كانت حول التليفون هالة ضوئية تومض، تحوَّلت الدهشة إلى رعب عندما رفعت السماعة. سمعت صوتًا كان يبدو قادمًا من بعيد، يتكلم بصعوبة شديدة. يقول مصحوبًا بخلفية من الهسيس والصرير: «مارتا ... أريد أن أودعك قبل أن أذهب.» كان صوت زوجها. وبعد ذلك، سمعت ضوضاء مثل ريح عاتية في الحال، استمرت الضوضاء لحظة ... ثم انقطع الاتصال، وران الصمت.

في ذلك الوقت، التمستُ العذر لصديقتي، ولم أعلق على جموح خيالها، لأنني كنت أعرف مدى حزنها، ذلك رغم أن فكرة اتصال الموتى بالأحياء، عن طريق التكنولوجيا الحديثة، كانت تبدو لي فكرة سخيفة. ولكن لا بد أن تكون القصة قد تركت أثرها عليَّ. على أية حال، ربما تقبع هناك رغبة في أبعد جزء من كياني ... عميقًا، عميقًا ... أن يتصل بي أحد من العالم الآخر تليفونيًّا، عاجلًا أو آجلًا ... لقد دفنت ابنتي وزوجي والرجل الذي أحببته كثيرًا ... أكثر من أي شيء في العالم.

إنهم موتى، لا وجود لهم، ومع ذلك أشعر بشعور من نجا من سفينة غارقة. المد جرفني، وألقى بي على جزيرة، ولا أعرف شيئًا عن رفاقي الذين اختفوا عندما انقلبت السفينة، ربما غرقوا، وهذا أكثر من مجرد احتمال، وربما لم يغرقوا.

ورغم مرور أشهر ... وسنوات، إلا أنني أواصل التحديق في الجزر القريبة، متوقعة أن أرى نفثة دخان، إشارة، شيئًا يؤكد شكي أنهم ما زالوا أحياء وجزءًا من العالم نفسه!

ليلة أن مات «إرنستو»، استيقظت على ضوضاء شديدة. أضاء النور، وقال: «من هناك؟»، ولم يكن في الغرفة أحد، بل إن كل شيء كان في مكانه كالمعتاد. وعندما فتحت باب خزانتي في الصباح، وجدت جميع الأرفف واقعة، وكل جواربي وأحذيتي وملابسي الداخلية مكومة في القاع.

الآن، أستطيع أن أتكلم عن ليلة أن مات «إرنستو»، بينما لم أكن أستطيع حينذاك، كنت قد تلقيت رسالة منه لتوي، ولا شيء كان بعيدًا عن ذهني. افترضت فقط أن الدعامات التي كانت تحمل الأرفف قد تآكلت بسبب الرطوبة، وانهارت بما كان فوقها من ثقل.

كانت «إيلاريا» في الرابعة من العمر، وقد بدأت الانتظام في الروضة من وقت قريب، وكانت حياتي معها، ومع أوجستو، قد استقرت على نحو رتيب ... عادي. بعد ظهيرة ذلك اليوم، وبعد اجتماع في نادي هواة الثقافة الرومانية، ذهبت إلى مقهى لكي أكتب إلى «إرنستو». كان هناك مؤتمر في «مانتوا» بعد شهرين، وكانت تلك فرصة اللقاء التي ننتظرها منذ وقت طويل. في طريق عودتي إلى المنزل أرسلت الخطاب، وفي الأسبوع التالي كنت أتوقع رده.

لم يصلني منه شيء في ذلك الأسبوع، ولا في الأسابيع التالية. لم يسبق له أن جعلني أنتظر طويلًا هكذا! فكرت في البداية أن يكون الخطاب قد ضاع في البريد، ثم ... ربما كان مريضًا، ولا يستطيع الذهاب إلى عيادته ليتسلم الخطاب.

بعد شهر كتبت له رسالة قصيرة ... ولا رد. بمرور الوقت كنت أشعر وكأنني منزل تتسرب المياه إلى أساسه، وبدأ يتقوض. كان التسرب في البداية خفيفًا، ويبدو غير ضارٍ، كان حول الدعامات الخرسانية فقط. بعدها، أصبح كبيرًا، وأشد قوة، وأكثر عنفًا، حتى تحولت الخرسانة إلى رمل ... ورغم أن المنزل قائم، ويبدو سليمًا من الخارج، إلا أنه — وكنت أعرف — كان جاهزًا للانهيار من أقل دفعة تجعل كل شيء يتقوض، وكأنه بيت من ورق.

عندما غادرت لكي أذهب إلى المؤتمر، كنت قد أصبحت خيالًا لنفسي السابقة، وبعد أن ظهرت — لوقت قصير — في «مانتوا» ذهبت إلى «فيرارا» مباشرة لأعرف ما حدث.

لا أحد يرد على جرس الباب في العيادة، ومن الشارع كانت المصاريع تبدو محكمة الإغلاق. في اليوم التالي ذهبت إلى مكتبة عامة، وطلبت صحف الأشهر الأخيرة، وفي فقرة صغيرة ... كان هناك كل ما أحتاج أن أعرفه.

ذات ليلة، وهو عائد بعد زيارة مريض، فَقَدَ السيطرة على عجلة القيادة فاصطدمت السيارة بشجرة ضخمة؛ مات على الفور. كان التاريخ والوقت متطابقين تمامًا مع انهيار خزانة الملابس.

في قسم الأبراج، في واحدة من تلك المجلات المخيفة التي تحضرها إليَّ سنيورا «رازمان»، من وقت إلى آخر، قرأت مرة أن المريخ في المنزل الثامن هو الأعلى في كل حوادث الموت العنيفة. وبناء على ما هو مكتوب، فإن أحدًا من مواليد هذه المجموعة من النجوم لن يموت على فراشه، وأتساءل حائرة إن كانت «إيلاريا» و«إرنستو» قد ولدا تحت ذلك الغطاء المشئوم! الأب وابنته ماتا بفارق عشرين عامًا، وبالطريقة نفسها، الاصطدام بشجرة ... على عجلة قيادة.

موت «إرنستو» ألقى بي في اكتئاب عنيف. سرعان ما أدركت أنني، على مدى السنوات القليلة الماضية، لم أكن أضيء بسبب نور منبعث من داخلي، وإنما كنت أعكس الضوء. السعادة وحب الحياة اللذان كنت أشعر بهما لا ينتميان إليَّ بالمرة ... ليسا مني ... كنت مجرد مرآة. كان «إرنستو» يشع ضوءًا بهيًّا، وأنا أعكسه، وبعد أن رحل؛ أظلم كل شيء مرة أخرى. رؤية «إيلاريا» لم تعد تفرحني، أصبحت تسبِّب لي ضيقًا وإزعاجًا. كنت مضطربة لدرجة الشك في أن تكون — فعلًا — ابنة «إرنستو»، ولم يخف عليها تغيُّر وجهي!

بواسطة جهاز الاستشعار الحاد لطفلة حساسة، سجلت رفضي، وأصبحت عنيدة وقاسية. كانت قد أصبحت الآن النبات الصغير المتسلق، وأنا الشجرة العجوز التي توشك حياتها أن تتسرب منها. كانت تتشمم شعوري بالذنب مثل كلب الشرطة، وتحوِّله إلى خطافات تتعلق بها أطرافها. أصبح المنزل جحيمًا صغيرًا بسبب نوبات الشجار والصراخ.

ولكي يريحني «أوجستو» من هذا العبء، جاء بسيدة لرعاية البنت. حاول لبعض الوقت أن يثير اهتمامها بحشراته، ولكن بعد ثلاث أو أربع محاولات، وبعد أن وجد أن استجابتها الوحيدة هي صراخها إن: «الحشرات مقرفة» ... أقلع عن ذلك. كان «أوجستو» يعبِّر عن عمره، كان ينبغي أن يكون جدًّا لابنته، وليس أبًا؛ كان حنونًا، ولكنه بعيد!

في كل مرة أنظر لنفسي في المرآة، كنت ألاحظ أيضًا أنني قد تقدمت كثيرًا في العمر. أصبحت أرى في ملامحي قسوة وخشونة لم تكونا هناك، إهمالي لنفسي كان نوعًا من التعبير عن اشمئزازي من نفسي.

والآن، بعد المدرسة وبعد المربية التي تسلمت «إيلاريا»، أصبح لديَّ وقت طويل لنفسي، وحيث إن تعاستي كانت قد جعلتني أكثر قلقًا، كنت أخرج بالسيارة لأتجول في أرجاء «الكارسو» وكأنني في غشية.

أعدت قراءة بعض الكتب عن الدين، كنت قد بدأت دراستها في «لاكيلا»، باحثة — بشدة — بين صفحاتها عن حل لمشاكلي. كنت أردد لنفسي عبارة «القديس أوغسطين» عندما ماتت أمه:

«دعنا لا نحزن على فقدانها، بل نقدم الشكر لأننا عرفناها.»

عرَّفتني صديقة لي على كاهن الاعتراف، ولكن في المرتين أو الثلاث التي التقينا فيها كنت أخرج من عنده أكثر اكتئابًا وإحباطًا. كانت كلماته حلوة ... لدرجة تبعث على الغثيان! يمدح قوة الإيمان، وكأنها شيء يؤكل ... يمكن الحصول عليه من أقرب سوبر ماركت!

لم أستطع أن أجد سببًا لموت «إرنستو»، وما في داخلي من ظلام جعل البحث أكثر صعوبة. تعرفين ... عندما التقينا، عندما وقعنا في الحب، شعرت في الحال أن كل شيء قد تقرر، كنت سعيدة أن أومن، سعيدة بوجود كل شيء حولي، شعرت بأنني قد وصلت إلى قمة وجودي، وأنها كانت راسخة، صلبة، وأن لا أحد يستطيع أن يزحزحني عنها، كنت واثقة من نفسي، وكان يملؤني اطمئنان العارفين الواثقين.

لعدة سنوات، كنت أعتقد أنني وصلت إلى تلك النقطة بجهدي، والحقيقة أنني لم أخط خطوة واحدة دون مساعدة. حتى وإن كنت أدرك ذلك في حينه، كنت محمولة على ظهر حصان، وهو الذي يتقدم على الطريق، وليس أنا.

وبمجرد اختفاء الحصان، أصبحت أشعر بقدميَّ وبضعفهما. كنت أريد أن أمشي، ولكن كاحليَّ انهارا، وأصبحت خطواتي خطوات طفل متعثرة ... أو شخص عجوز.

في فترة ما، فكرت في أن أتعلق بأية دعامة قريبة من يدي: الدين مثلًا ... أو العمل. ثم طردت الفكرة من رأسي بسرعة، مدركة أنني كنت سأتخبط ثانية. في سن الأربعين، ليس ثم مكان للتخبط. إذا وجدت نفسك عارية فلا بد أن تكوني شجاعة لتقبل الواقع. كان عليَّ أن أبدأ من جديد، حسن! ولكن من أين؟ من نفسي!

من السهل جدًّا أن نقول ذلك، ولكن كم هو صعب أن ننفذ!

أين كنت؟ من كنت؟ متى كنت نفسي فعلًا آخر مرة؟

كما قلت لك بالفعل، كنت أجول بالساعات على التلال، أنظر إلى المدينة تحتي، وعندما أشعر أحيانًا بأن تلك الوحدة تجعلني أكثر سعادة، أعود إلى المدينة، وأسير في شوارعها

مختلطة بالزحام، بحثًا عن بعض السلوى. كنت مثل المرتبط بوظيفة ... أترك المنزل عندما يغادره «أوجستو»، وأعود عندما يعود. كان طبيبي يقول لي إن تلك الحاجة للحركة جزء عادي من أنواع معينة من الانهيار العصبي.

لم أكن انتحارية، ولذا لم يكن هناك خطورة تتعلق بجولاتي، قال: إن المجهود الذي أقوم به يمكن أن يؤدي إلى تهدئتي، وقبِل «أوجستو» ذلك التفسير، ولكن سواء كان يصدق ذلك، أو كان يغض الطرف من أجل حياة هادئة، فأنا لا أعرف بالضبط. على أية حال كنت ما أزال ممتنة له لوقوفه بعيدًا، وعدم اعتراضه على جولاتي المعذبة. كان الطبيب على حق تمامًا في شيء واحد، أيًّا كانت درجة اكتئابي إلا أنني لم أكن انتحارية، كان ذلك غريبًا. بعد موت «إرنستو» لم تخطر فكرة الانتحار على بالي، ولا لدقيقة واحدة. لم تكن «إيلاريا» هي التي منعتني، كما قلت لك من قبل، فهي لم تكن تعني لي شيئًا في ذلك الوقت. كان بالأحرى لديَّ شعور باطني بأن خسارتي المفاجئة لم يكن مقصودًا أن تكون نهاية في حد ذاتها. كان لها هدف إلى حدٍّ ما، وكنت ألمح ذلك الهدف يتجلى لي كصخرة عالية، لا بد أن أصل إليها. هل كانت هناك لكي أصعدها؟ احتمال! ورغم أنني لم أستطع أن أتصور ما هو موجود على الجانب الآخر، أو ما سوف أراه بمجرد وصولي إلى القمة.

ذات يوم وصلت بالسيارة إلى مكان لم يسبق لي أن ذهبت إليه من قبل. وهناك كانت توجد كنيسة صغيرة تحيط بها مقبرة. التلال على الجانبين تغطيها الغابات، وعلى قمة أحدها رأيت الجدران الرمادية لقلعة قديمة. وراء الكنيسة مباشرة منزلان ريفيان أو ثلاثة ... ودجاج ينقر بحرية ... وكلب أسود ينبح. اسم المكان على الخريطة «ساماتورزا» ... ساماتورزا ... اللفظة قريبة من معنى كلمة «عزلة». المكان المناسب لكي يستجمع المرء فيه أفكاره. طريق حجري وعر يؤدي إلى خارج القرية، بدأت أسير عليه، دون أن أدري إلى أين يأخذني. كنا ساعة الغروب، ورغم ذلك كنت كلما تقدمت في السير، تقل رغبتي في التوقف. ومن حين إلى آخر كانت صرخة طائر «أبو زريق» تجعلني أقفز في مكاني. كان هناك شيء بعيد يناديني، ولكنني لم أفهم ما هو إلا عندما وصلت إلى منطقة خالية، ورأيت في وسطها شجرة بلوط ضخمة هادئة وجليلة ... ذراعاها ممدودتان، وكأنها تستقبلني.

قد يبدو ذلك سخيفًا، ولكنني بمجرد رؤيتها ... بدأ قلبي يدق بطريقة مختلفة، بدل أن يدق، كان يخرخر مثل قطة صغيرة سعيدة ... مثلما كان يفعل عندما كنت أرى «إرنستو».

جلست تحت الشجرة، مسدتها وسندت ظهري ورأسي على جذعها. «اعرفي نفسك» ... كنت قد كتبت تلك العبارة في كراسة تمارين اللغة اليونانية، وأنا تلميذة في المدرسة.

وأنا جالسة تحت شجرة البلوط، برزت إلى سطح ذهني تلك العبارة. اعرفي نفسك، هواء منعش، نسمة حياة.

١٦ ديسمبر

تساقط الثلج في الليل، وعندما استيقظت هذا الصباح كانت الحديقة بيضاء. «باك» يجري على العشب كالمجنون، يقفز وينبح ويتلوى، ويمسك الأغصان بأسنانه، ويطيح بها في الهواء. بعد فترة جاءت سنيورا «رازمان»، تناولت القهوة، ودعتني لقضاء مساء الكريسماس معهم. وقبل أن تذهب، سألتني: «ماذا تفعلين طيلة اليوم؟» هززت كتفي: «لا شيء ... أشاهد التليفزيون لبعض الوقت ... أفكر قليلًا.»

لم تسألني عنك، كانت تتجنب الموضوع بلباقة، ولكنني كنت أستطيع أن أسمع من نبرة صوتها أنها تعتبركِ جاحدة. في أثناء الحوار تلمِّح عادة إلى أن الصغار قساة، لا يبدون احترامًا للكبار. ولكي أقصر عليها الطريق أهز رأسي، بينما أنا مقتنعة في قرارة نفسي أن القلوب هي نفسها كما كانت دائمًا، كل ما في الأمر أن هناك نفاقًا أقل! أنانية الصغار، بطبعهم، ليست أكثر من حكمة الكبار بطبعهم! الفهم والسطحية ليس لهما علاقة بالعمر، وإنما بالحياة التي يعيشها كلٌّ منا. لا أعرف أين، ولكنني من وقت ليس بعيدًا، قرأت مثلًا أمريكيًّا هنديًّا يقول: «قبل أن تحكم على شخص، سِر لابسًا حذاءه لمدة ثلاثة أشهر.» ووجدت أن من المفيد أن أكتب تلك العبارة في النوتة المجاورة للتليفون لكيلا أنساها.

عند النظر إليها من الخارج، تبدو حياة أناس كثيرين متصدعة، غير عقلانية، وربما مجنونة. وإن لم ننظر أعمق من السطح، يصبح من السهل أن نسيء فهم الناس وعلاقاتهم. ولكن بالنظر عميقًا، بالسير بأحذيتهم لمدة ثلاثة أشهر، يمكن فقط أن نفهم دوافعهم ومشاعرهم، ولماذا يتصرفون على نحو معين.

الفهم يأتي من التواضع، وليس من غرور المعرفة. أتساءل ... إن كنتِ ستلبسين شبشبي بعد قراءة ذلك! أتمنى!

ليتك تقضين وقتًا طويلًا سائرة به في أرجاء المنزل، وأن تدوري أكثر من مرة في الحديقة، من شجرة اللوز إلى شجرة الكرز، ومن شجرة الكرز إلى شجرة الورد، ومن شجرة الورد إلى شجرة الصفصاف السوداء الكئيبة في آخر المساحة الخضراء. أتمنى أن تفعلي ذلك. أنا لا أريد أن أستجدي إحسانك أو أطلب منك العفو بعد أن أموت، وإنما لأنه ضروري لك ولمستقبلك. أن نفهم من أين جئنا، وماذا في ماضينا، فإن تلك هي الخطوة الأولى للتعامل مع المستقبل، دون زيف أو خداع.

كان ينبغي أن أكتب هذه الرسالة لأمك، ولكنني أكتبها لك بدل ذلك، لو لم أكتبها بالمرة لكان وجودي كله فشلًا.

من الطبيعي أن نخطئ، ولكن أن يذهب الإنسان إلى قبره دون أن يفهم أخطاءه، فإن ذلك يجعل الحياة تجربة عديمة الجدوى.

الأشياء التي تحدث لنا ليست نهايات أو غايات في حد ذاتها، ليست بلا مبرر. كل مواجهة … كل حدث، مهما بدا صغيرًا، له معنى، ومعرفة الذات تتحقق من الاستعداد لفهم تلك الواجهات والأحداث، ومن القدرة على تغيير الاتجاه، من لحظة إلى اللحظة التي تليها، لتغيير الجلد القديم، بشكل طبيعي، كما تفعل السحالي مع تغيُّر الفصول.

لو أنني لم أتذكر في ذلك اليوم، وأنا في الأربعين، تلك العبارة المكتوبة في دفتر التمارين اليونانية، لو لم أضع خطًّا تحت الماضي قبل مواصلة حياتي؛ لواصلت تكرار الأخطاء نفسها أكثر من مرة. ولكي أطرد ذكرى «إرنستو» كان لا بد أن أتخذ حبيبًا جديدًا … ثم آخر … ثم آخر … بحثًا عن «إرنستو» آخر، في محاولة لأن أجد ما كان لديَّ، كان لا بد أن أجرب العشرات! لا أحد منهم سيكون مثل الأصل. وكان لا بد أن أواصل غير راضية إلى ما لا نهاية، حتى أصبحت امرأة غريبة، عجوزًا تحيط بها مجموعة من الشبان، أو كان يمكن أن أكره «أوجستو» الذي كان سبب عدم قدرتي على اتخاذ قرارات أكثر حسمًا.

هل تفهمين؟ ليس هناك ما هو أسهل من أن تجدي منفذًا، طريقًا للخروج عندما لا تستطيعين مواجهة حقيقة نفسك. يمكنك دائمًا أن تلقي الذنب على كتف شخص آخر، ولكن الأمر يتطلب شجاعة لكي نقبل أن الذنب — أو المسئولية — ذنبنا، ومسئوليتنا نحن … ونحن فقط! ورغم ذلك فإن هذا، كما قلت، هو الطريق الوحيد المتجه للأمام. إذا كانت الحياة رحلة؛ فإن الرحلة في صعود طول الطريق.

في سن الأربعين، عرفت من أين يجب أن أبدأ، ولكن لكي أفهم إلى أين أنا ذاهبة، فقد كانت تلك عملية طويلة، مليئة بالعثرات، ولكنها فاتنة.

تعرفين، مشاهدة التليفزيون وقراءة الصحف تجعلني دائمًا أرى وأسمع عن التزايد المستمر في أعداد الدعاة الدينيين، والأخبار مليئة بأناس يتخذون قرارات سريعة لاتِّباع تعاليمهم. يفزعني انتشار مثل تلك المعتقدات والوسائل التي تقدمها؛ بحثًا عن السلام الداخلي والتواؤم الشامل. إنها الدلائل الواضحة على شعور واسع بالحيرة. نحن نتجه وئيدًا — ليس وئيدًا جدًّا — نحو نهاية الألفية الثانية، ورغم أن التاريخ ليس أكثر من تقليد، إلا أنه يجعل الناس يفكرون. كل واحد في انتظار حدوث شيء هائل، والكل يريد أن يكون مستعدًّا له، لذلك يبحثون عن أبطالهم، يسجلون أنفسهم في دورات دراسية لمعرفة الذات، وبعد أقل من شهر تتورم رءوسهم بتلك الغطرسة التي تميز الأنبياء … الأنبياء المزيفين، كذبة أخرى كبيرة مخيفة، تضاف إلى الكذبات العديدة التي سبقتها.

المعلم الوحيد، المعلم الوحيد الحقيقي والصادق هو الضمير؛ لكي تسمعي صوته لا بد أن تقفي صامتة — وحيدة وفي سكون — على الأرض الجرداء، عارية ولا شيء حولك كما لو كنت ميتة.

في البداية لن تسمعي شيئًا، وسوف تشعرين بالرعب … لكن بعد ذلك ستسمعين صوتًا هادئًا آتيًا من البعيد البعيد … وربما سمعت في البداية تفاهات مزعجة فقط. هي حقيقة غريبة، ولكنك عندما تتوقعين أن تواجهك أشياء مهمة، فإن كل ما ترينه ليس سوى أشياء غير مهمة، تافهة، وواضح أنك لن تستطيعي أن تصرخي، وتقولي: «هل هذا هو كل شيء؟»

إن كان للحياة هدف فلَسوف يهمس لك الصوت: الهدف هو الموت، هو محور كل شيء، يا له من اكتشاف رائع! سيكون ذلك هو رأيك حينذاك. يا له من اكتشاف رائع أن يكون الموت هو الموضوع، باستثناء أن كل شخص حي يعرف أنه أو أنها ستموت. صحيح تمامًا أن كنا نعرف ذلك عقليًّا، ولكن أن تعرفي شيئًا بالعقل، وأن تشعري به في قلبك … أمران مختلفان جدًّا.

عندما كانت أمك تهاجمني بطريقتها المتعجرفة، كنت أقول دائمًا: «أنت توجعين قلبي» وكانت تضحك، وتقول: «لا تكوني غبية! القلب مجرد عضلة، لن توجعك إلا إذا لمستها بعنفٍ.»

وعندما كبرتْ، وأصبَحَتْ مدركة، حاولت كثيرًا أن أتكلم معها، وأشرح لها تتابع الأحداث التي أدت إلى انسحابي وابتعادي عنها، قلت: «صحيح أنني قد أهملتك لفترة عندما كنت صغيرة جدًّا، فقد كنتُ مريضةً لدرجة الخطر. ولو أنني حاولت رعايتك أثناء مرضي،

فلربما كانت الأمور قد ساءت أكثر مما كانت. الآن أنا في صحة جيدة، ويمكن أن نتكلم معًا، وأن نناقش الأمور، ونبدأ من جديد.» ولكنها لم تكن تريد أن تعرف. قالت: «وأنا الآن مريضة!» ورفضت أن تقول شيئًا أكثر من ذلك. كانت تكره هدوئي، وتحاول — باستمرار — أن تكدرني، وتسحبني دائمًا إلى الحفر التي كانت تحفرها لنفسها كل يوم.

كانت قد أصبحت مقتنعة بأن التعاسة هي حالتها الطبيعية، ووضعت حول نفسها حواجز لتمنع أي شخص من هز الصورة التي رسمتها لحياتها. كان من المنطقي، طبعًا، أن تقول إنها كانت تريد أن تكون سعيدة، ولكنها عندما وصلت إلى السادسة عشرة أو السابعة عشرة، كانت قد سدت أية إمكانية للتغيير. وبينما كنت أنا أكتشف أبعادًا جديدة، كانت هي تقف، ويداها تغطيان رأسها، متوقعة أن يسقط شيء فوقها. شعوري بالهدوء والاطمئنان — الذي اكتشفته مؤخرًا — كان يزعجها، وعندما كانت ترى «العهد الجديد» على الطاولة بجوار سريري، تقول: «لا أعرف لماذا تبحثين عن السلوى!»

وعندما مات «أوجستو»، لم تحاول حتى أن تحضر جنازته.

أثناء السنوات الأخيرة من حياته كان يعاني من حالة تصلب شرايين حادة، كان يمشي متثاقلًا في أرجاء المنزل، يتكلم كالأطفال، وكانت تجد ذلك أمرًا لا يمكن تحمُّله. «ماذا يريد ذلك الرجل؟» كانت تصرخ كلما ظهر يجرجر قدميه في شبشبه على باب أية غرفة. عندما مات كانت في السادسة عشرة، ولم تكن تناديه بـ «بابا» منذ الرابعة عشرة.

مات في المستشفى بعد ظهيرة يوم من شهر نوفمبر، وكان قد دخل المستشفى في اليوم السابق، بسبب أزمة قلبية. بقيت معه في الجناح، لم يكن يرتدي بيجامته، وإنما رداء المستشفى المربوط من الخلف، وكانت حالته متأخرة جدًّا كما قال الأطباء.

بالكاد ... أحضرت الممرضة طعام العشاء، وكأنه قد رأى شيئًا ... فقام فجأة من الفراش، وتقدم ثلاث خطوات نحو النافذة. قال وهو ينظر بعينين لا تريان شيئًا: «يدا إيلاريا! لا أحد في العائلة له يدان مثل يديها!» ثم عاد إلى الفراش ... ومات!

نظرت من النافذة، كان مطر خفيف في الخارج. مسحت على رأسه برفقٍ. كان يعرف ... منذ سبعة عشر عامًا، دون أن تبدو منه أية بادرة على أنه كان يعرف.

نحن في منتصف النهار، الشمس مشرقة، والجليد يذوب. ظهرت بقع من الحشيش الأصفر في الساحة الأمامية، ومن فروع الأشجار تتساقط قطرات الماء ببطء. عندما مات «أوجستو» لاحظت شيئًا غريبًا: الموت في حد ذاته لا يسبب النوع نفسه من الحزن. يحدث فراغ مفاجئ — الفراغ دائمًا هو الفراغ نفسه — ولكن داخل ذلك الفراغ تتشكل أنواع مختلفة من الحزن. كل ما لم نقله يتشكل ويتسع ويكبر ويكبر ... ليس للفراغ أبواب أو

نوافذ أو مسالك يتسرب منها. كل ما هو معلق فيه سيظل هناك إلى الأبد، فوق رأسك، معك، حولك، يحتويك ويربكك مثل ضباب كثيف. حقيقة أن «أوجستو» كان يعرف حكاية «إيلاريا» ولم يتكلم ... أقلقتني، وأزعجتني كثيرًا. الآن ... كنت أريد أن أتكلم معه عن «إرنستو»، وكيف كان بالنسبة لي. أريد أن أتكلم عن «إيلاريا»، أناقش مليون شيء وشيء معه ... ولكن ذلك كان مستحيلًا!

ربما يمكنك الآن أن تدركي ما قلته لك في البداية، وهو أن الذي يثقل علينا ليس غياب من ماتوا، وإنما كل ما لم يُقَل بيننا وبينهم!

توسلت الراحة في الدين بعد موت «أوجستو»، كما فعلت بعد موت «إرنستو». وفي الفترة الأخيرة أصبحتُ على علاقة مع أحد الآباء الجزويت يكبرني بسنوات قليلة.

عندما أدرك — بعد لقاء أو لقاءين — أنني لم أكن مستريحة للطقوس الدينية في الكنيسة، اقترح أن نلتقي في مكان آخر. ولأن كلينا يحب المشي، قررنا أن نخرج للتمشية معًا.

كان يأتي ليأخذني مساء كل أربعاء، لابسًا حذاءً ثقيلًا، حاملًا حقيبة ظهر قديمة. كان وجهه مريحًا، يبعث على السرور، ذلك الوجه ذو الخدين العميقين، الوجه الجاد لرجل وُلِد ونشأ في الجبال. ولأنه قسيس كنت خجلة أن أكون أنا البادئة ... كنت أحكي له نصف كل قصة فقط، خوفًا من أن أصدمه، أو أن أروعه بالإدانة أو الأحكام المتسرعة. ثم ذات يوم، ونحن جالسان على صخرة، قال: «أنت تؤذين نفسك وتعرفين، تؤذين نفسك فقط.»

منذ تلك اللحظة توقفت عن الكذب، وفتحت قلبي على نحو لم أفعله مع أي شخص آخر منذ موت «إرنستو». كانت الكلمات تخرج مني متدافعة، وكنت أثناء ذلك أنسى تمامًا أنه كان رجل دين. وعلى عكس كل القساوسة الذين عرفت، لم يكن يستخدم أبدًا عبارات اللوم أو السلوى. كان كل ذلك الملل، وكل تلك الكلمات التافهة غريبًا عنه. كان فيه — حتى — نوع من الغلظة يمكن أن يكون طاردًا للوهلة الأولى. قال: «نحن ننضج فقط من خلال الألم، ولكننا يجب أن نواجه الألم مرفوعي الرءوس. أولئك الذين ينتحون جانبًا، أو ينحدرون إلى رثاء الذات يخسرون المعركة حتمًا.» يكسب ويخسر ... كانت تلك كلمات ومصطلحات عسكرية تستحضر إلى الذهن صراعًا صامتًا، حربًا داخلية.

كان يرى أن قلب الإنسان مثل الكرة الأرضية، نصفه في الشمس، ونصفه في الظل. حتى القديسون ليسوا في الشمس بالكامل. «أن يكون لنا جسد معناه أن جزءًا منا في الظل. نحن مثل الضفادع برمائيون، لأن جزءًا منا يعيش في الأعماق هنا، بينما يصعد الجزء الآخر إلى أعلى ... والحياة تعني الوعي بذلك فقط ... معرفته، ومحاولة الاحتفاظ

بالنور حتى لا يختفي، حتى لا يطغى عليه الظلام. لا تثقي بمن يعتبرون أنفسهم كاملين، الذين يعتقدون أن لديهم كل الإجابات، لا تثقي في أي شيء سوى ما يقوله لك قلبك.»

كنت أستمع إليه مسحورة، لم ألتق في حياتي — من قبل — بأحد يمكنه أن يعبر هكذا جيدًا، عن المشاعر التي كانت تقلقني منذ وقت طويل، ولم أكن أستطيع أن أعبِّر عنها بكلمات. عندما استمعت إليه وَجَدَتْ أفكاري شكلًا لها، تجسدت؛ وفجأة رأيت الطريق أمامي، ولم تعد الرحلة عليه مستحيلة.

من وقت لآخر، كان يضع في حقيبة ظهره كتابًا من تلك الكتب العزيزة عليه، وعندما يتوقف ليستريح، يقرأ أجزاء منه بصوته القوي الواضح.

في رفقته، أصبحت أعرف صلوات الرهبان الروس، تلاوة القلب، وأفهم أجزاء من الأناجيل والعهد القديم، والتي كانت قبل ذلك غامضة، عصية على الفهم. في السنوات التي تلت موت «إرنستو» كنت بالفعل أقوم برحلة داخلية، ولكن الطريق كان محدودًا بمدى معرفتي بذاتي. عند نقطة معينة على هذا الطريق، وجدت نفسي أمام حائط مصمت. كنت أعرف تمامًا أن الطريق ممتد إلى الأمام على الناحية الأخرى من الحائط، وأنه أكثر اتساعًا، وأسطع إضاءة! ولكنني لا أعرف كيف أتسلق الحائط. وذات يوم أجبرنا المطر على اللجوء المفاجئ إلى مدخل مغارة. سألته: «ماذا يفعل المرء للوصول إلى الإيمان؟». «المرء لا يفعل شيئًا، الإيمان يأتي وحده. إنه لديك بالفعل، ولكن كبرياءك أو غرورك يمنعك من الاعتراف به. تسألين أسئلة كثيرة، تُعَقِّدين ما هو بسيط. أنت في الحقيقة لديك خوف شديد، استرخي ... وسوف يأتي ما لا بد أن يأتي.»

بعد تمشيتنا، كنت أعود إلى المنزل أكثر ارتباكًا وحيرة، وأكثر شكًّا عن ذي قبل؛ كان فظًّا، كما قلت لك ... وقد جرحتني كلماته.

فكرت أكثر من مرة ألا أراه ثانية، ثم قررت مساء الثلاثاء أن أتصل به تليفونيًّا، وأخبره ألا يجيء ... وأنني كنت متعبة. لم أفعل ذلك، كانت أمسيات الأربعاء تجدني في انتظاره على الباب، بحقيبة الظهر وحذاء المشي.

استمرت رحلاتنا نحو العام، ثم — دون إنذار — نقلوه إلى مكان آخر. ما قلته لك حتى الآن، قد يترك انطباعًا أن الأب «توماس» كان رجلًا متعجرفًا أو متشددًا، أو أن هناك مبالغة وربما تعصبًا في كلماته أو نظرته للحياة، ولكنه لم يكن كذلك. كان قبل كل شيء، هو الأكثر هدوءًا والأكثر اعتدالًا بين كل من عرفت من رجال. لم يكن مسيحيًّا مقاتلًا. لو كان في الأمر تصوف، لكان تصوفًا شخصيًّا، إيجابيًّا مستقرًّا في الحياة اليومية. كان دائمًا يقول: «نحن هنا ... الآن.»

أعطاني مغلفًا على عتبة الباب، بداخله بطاقة بريدية ... صورة مراعٍ جبلية. الصورة تحمل عبارة: «مملكة الرب في داخلك»، وعلى ظهرها كتب بخط يده: «تحت شجرة البلوط لا تكوني نفسك، كوني شجرة البلوط، في الغابة كوني الغابة، على العشب كوني العشب، وبين الناس كوني أنت الناس.»

«مملكة الرب في داخلك»، هل تتذكرين؟ العبارة نفسها التي تركت فيَّ الانطباع نفسه عندما كنت عروسًا تعسة في «لاكيلا»، ثم عندما أغمضت عيني، ونظرت داخل نفسي لم أر شيئًا. بعد أن قابلت الأب «توماس» ... هناك شيء ما تغير. ما زلت لا أرى شيئًا، لكن الظلام لم يعد كاملًا، كان هناك ضوء ضئيل على البعد، ومن وقت إلى آخر ... لجزء من الثانية، كنت أستطيع أن أنسى نفسي. كان الضوء ضعيفًا وخفيفًا، شعلة بسيطة يمكن لأقل نَفَسٍ أن يطفئها، ولكن كونها هناك، كان يعطيني إحساسًا غريبًا بانعدام الوزن، إحساسًا، لم يكن السعادة، وإنما البهجة. ليس فرحًا ولا شعورًا بالقوة، لم أشعر بأنني أعقل أو أفضل، كل ما كنت أشعر به هو وعي هادئ بالوجود.

على العشب كوني العشب، تحت شجرة البلوط كوني شجرة البلوط، وبين الناس ... كوني أنت الناس!

٢٠ ديسمبر

صعدت هذا الصباح إلى غرفة السطح يتبعني «باك». لا أستطيع حتى أن أتذكر متى كانت آخر مرة فتحت فيها هذا الباب. غبار في كل مكان، وعنكبوت معلق في زوايا العوارض الخشبية. عندما أزحت الكراتين والصناديق وجدت اثنين أو ثلاثة أعشاش للزغب، وهي قوارض تشبه السنجاب، ولكنها كانت نائمة لم تشعر بشيء. نحب غرف السطح كلنا ونحن أطفال، وعندما نكبر يقل حبنا لها. وكل ما كان مكانًا للسحر والغموض والاستكشاف والمغامرة يصبح مملوءًا بالذكريات الحزينة!

كنت أبحث عن طحين حنطة الكريسماس، وكان لا بد أن أفتح عدة صناديق لكي أجده. رأيت عروسة «إيلاريا» المفضلة ملفوفة بعناية في ورق جرائد وقماش قديم … وكذلك بعض لعبها القديمة، ووجدت أيضًا حشرات «إرنستو»، وكانت ما تزال لامعة ومحفوظة بعناية … ونظارته المكبرة، وكل الأدوات التي كان يستخدمها لجمع الحشرات. وبالقرب منها، وفي علبة صفيح قديمة، وجدت رسائل «إرنستو» مربوطة بشريط أحمر. لم يكن هناك شيء من رسائلك، فأنتِ ما زلت صغيرة، وعلى قيد الحياة … ومكانك ليس غرفة السطح بعد.

وعندما فتحت بعض اللفائف المحفوظة في حقيبة قديمة، وجدت أيضًا الأشياء القليلة التي كانت لي وأنا طفلة، والتي تم إنقاذها من بين أنقاض منزلنا. كانت محروقة وسوداء اللون، فتناولتها — بحذرٍ — كأنها أشياء مقدسة. كان معظمها أشياء صغيرة للمطبخ … وعاء من الخزف، سكرية صيني لونها أزرق في أبيض، بعض أدوات المائدة، صينية للخبيز … وتحت ذلك أوراق كتاب … مفككة وليس لها غلاف. أي كتاب ذلك يا ترى؟ لم أستطع أن أتذكر إلى أن تناولته بحرص شديد، ورأيت الأسطر الأولى … ويا لها من لحظة! لم يكن مجرد كتاب قديم، إنه ذلك الكتاب الذي أحببت أكثر من الجميع عندما كنت

طفلة. الكتاب الذي غذَّى خيالاتي ... أكثر من أي كتاب آخر. كان عنوانه «عجائب القرن الواحد والعشرين»، وكان من كتابات الخيال العلمي. كانت قصة بسيطة جدًّا، ولكنها مليئة بالخيال. عالِمان يعيشان في نهاية القرن التاسع عشر، ويريدان أن يعرفا ما إذا كانت الأشياء العجيبة التي وعدَنا بها التقدم سوف تتحقق أم لا. رتَّبا كل شيء لكي يظلا في حالة سبات حتى عام ألفين، وبعد مائة عام بالضبط أيقظهما حفيد أحد الزملاء (وهو عالم أيضًا)، وأخذهما في جولة في العالم على متن رصيف طائر. في هذه القصة لا يوجد شيء من خارج كوكب الأرض، ولا أحد من رجال الفضاء. كل الأشياء التي حدثت لها علاقة فقط بالإنسان ومصيره، وما صنع بيديه.

وكما يقول الكاتب، فإن الإنسان كان قد صنع أشياء، وكلها عجيبة. الجوع والفقر اختفيا من العالم، بفضل التكنولوجيا تمكنَّا من إيجاد وسائل تجعل كل أرجاء الكرة الأرضية خصبة، والأهم من ذلك، أن توزيعًا عادلًا قد تحقق لكل السكان.

الآلات والمعدات تقوم بجميع الأعمال الشاقة، وكل واحد أصبح لديه الكثير من الوقت الحر، وهكذا فإن كل إنسان يمكنه أن ينمي ملكاته وقدراته النبيلة. العالم كله يصدح بالموسيقى والشعر والهدوء والحوار الفلسفي الراقي. وكأن ذلك كله لا يكفي، فالرصيف الطائر يمكنه أن يحملك من قارة إلى أخرى، في أقل من الساعة. كان العالمان العجوزان سعيدين. كل ما صورته لهما فلسفتهما الإيجابية قد تحقق. وبينما أقلب صفحات الكتاب وجدت رسمي المفضل: العالمان الممتلئا الجسم، كلاهما بلحيته الداروينية، وصديريته المربعات، يحدق ببهجة إلى أسفل من فوق الرصيف الطائر.

ولإزالة آخر ذرة من الشك، استجمع أحدهما شجاعته ليسأل السؤال القريب من قلبه: «وماذا عن الفوضويين والثوريين؟ هل ما زالوا موجودين؟»

قال دليلهما مبتسمًا: «بكل تأكيد، يعيشون منعزلين في مدن تحت كتل الجليد القطبية، لذا لا يمكنهم أن يحدثوا ضررًا بالآخرين من البشر، حتى وإن أرادوا.»

«وماذا عن الجيوش؟» سأل العالم الثاني في الحال، أجاب الشاب: «لا أرى جنديًّا واحدًا في أي مكان، لم يعد هناك جيوش!»

تنهد العالمان العجوزان بارتياح شديد: «أخيرًا عاد الإنسان إلى حالته الأصلية ... حالته الخيرة»، لكن فرحهما وارتياحهما كان قصيرًا؛ إذ سرعان ما قال دليلهما: «ولكن ذلك ليس هو السبب، الإنسان لم يفقد رغبته في التدمير، كل ما هنالك أنه قد تعلم كيف يتحكم فيها»، «الجنود والمدافع والحراب ... كلها أصبحت أشياء تنتمي للماضي، احتل مكانها

سلاح صغير لكنه شديد القوة، ولذلك — بالتحديد — أصبحت الحروب شيئًا قديمًا. عليك فقط أن تصعد جبلًا، وتلقي به من حالق لينهار العالم كله ويتحول إلى كومة من الشظايا والفتات.»

الفوضويون … الثوريون … كانت كلمات مثل الكوابيس عندما كنت طفلة. قد يكون من الصعب عليك فهمها، ولكن لا بد أن تتذكري أنني كنت في السابعة وقت ثورة أكتوبر. كنت أسمع الكبار يتهامسون فيما بينهم بأشياء رهيبة، وذات مرة قالت لي إحدى صديقاتي في المدرسة إن القوزاق سيصلون إلى «روما» قريبًا، وسوف يكونون عند «سان بيتر»، ويسقون خيولهم من النافورات المقدسة.

إحساسي بالرعب، وهو طبيعي بالنسبة لكل العقول الصغيرة، جعلني مسكونة بتلك الصورة الذهنية، وكنت عندما أذهب إلى الفراش ليلًا، أسمع الحوافر تدق الأرض مرعدة على طريق البلقان.

لم أكن أدرك جيدًا أن الفظائع التي أشهدها ستكون مختلفة تمامًا، وستكون أكثر رعبًا من خيول تعدو في شوارع روما.

عندما قرأت ذلك الكتاب وأنا طفلة، أجريت عمليات حسابية معقدة لأرى إن كنت سأعيش حتى عام ألفين.

التسعون … كانت تبدو عمرًا طويلًا نسبيًّا، ولكن بلوغها ليس مستحيلًا، وهذا المفهوم أعطاني إحساسًا معينًا بالتيه، وجعلني أشعر بالتفوق عن أولئك الذين لن يصلوا إلى القرن الواحد والعشرين. الآن، وهو هنا، تقريبًا، أعرف أنني لن أعيش لأشهده، هل يجعلني ذلك أشعر بالحزن أم بالحنين إلى الماضي؟

لا! إنه يجعلني فقط أشعر بالإرهاق … والسأم. من بين جميع الأعاجيب المذكورة في الكتاب، رأيت أعجوبة واحدة فقط تتحقق … هي ذلك السلاح الصغير الرهيب.

لا أعرف إن كان ينتاب غيري من الناس في نهاية العمر ذلك الشعور المفاجئ بأنهم قد عاشوا طويلًا جدًّا … ورأوا كثيرًا جدًّا … وأحسوا كثيرًا جدًّا. لا أستطيع أن أقول إن كان إنسان العصر الحجري قد شعر بذلك أم لا!

عندما أفكر في هذا القرن الذي اكتمل تقريبًا، والذي عشت فيه، يكون لديَّ الانطباع بأن الزمن قد بدأ يمر بسرعة أكبر. النهار ما زال نهارًا، طول الليل ما زال متناسبًا مع طول النهار، طول النهار ما زال يحكمه تغير الفصول … وهو الشيء نفسه الذي كان في العصر الحجري.

ومع ذلك أشعر بأن كل شيء قد أصبح أسرع. التاريخ حاشد بالأحداث، يمطرنا بالأحداث من كل صنف. في نهاية كل يوم نصبح أكثر إرهاقًا، في آخر العمر نكون منهكين مستهلكين. فكري في ثورة أكتوبر، وفي الشيوعيين! لقد شهدت صعود الشيوعية، والتفكير في البلشفيك كان يبقيني ساهرة طوال الليل، رأيتها تنتشر في بلد بعد الآخر، وتقسم الكرة الأرضية إلى فلقتين كبيرتين، هذه سوداء والأخرى بيضاء. أبيض وأسود متورطان في صراع دائم، كلاهما ضد الآخر. صراع جعلنا جميعًا نحبس أنفاسنا، السلاح الرهيب استُخدم مرة واحدة، وقد يُستخدم ثانية في أي وقت. ثم فجأة ... في يوم مثل غيره من الأيام ... أفتح التليفزيون لأجد أن كل شيء قد انتهى. إنهم يهدمون الحوائط، يزيلون الأسلاك الشائكة والتماثيل. في أقل من شهر أصبحت يوتوبيا القرن ديناصورًا تم تحنيطه، لم يعد هناك خطر منه، فهو لا يتحرك، يقف وسط قاعة والجميع يمرون من أمامه في طابور طويل ... وكل منهم يقول: «كم كان ضخمًا! كم كان مرعبًا!»

تكلمت عن الشيوعية، وكان يمكن — بالمثل — أن أتكلم عن أي شيء آخر من أشياء كثيرة حدثت في الفترة التي عشتها ... حدثت واختفت.

هل فهمت الآن لماذا قلت إن الزمن يتحرك بسرعة أكبر؟ في العصر الحجري، لم يكن يحدث شيء تقريبًا في مدى حياة شخص ما. موسم المطر، ثم الثلج، موسم الشمس، ثم الأوبئة والجراد، بعض المناوشات الدامية مع الجيران ... وربما هبوط نيزك صغير.

لا شيء كان يحدث خارج منطقة الرعي التي يعرفها الشخص، والنهر، كان الوقت بالطبع يتحرك بطيئًا.

هناك حكمة صينية تقول: «فليكن زمنك ممتعًا.» هل هذا تعبير عن الصداقة؟ لا أعتقد ذلك، إنها بالأحرى لعنة، فالأزمان الممتعة هي الأزمان المضطربة، تلك التي تقع فيها أحداث كثيرة. لقد عشت في أزمان ممتعة، وأنت قد تعيشين أزمانًا أكثر إمتاعًا، قد يكون ذلك تواترًا فلكيًّا، ولكن نهاية الألفية تبدو دائمًا وكأنها تحمل كارثة.

في أول يوم من شهر يناير عام ألفين، سوف تستيقظ العصافير على الأشجار في الوقت نفسه كما فعلت يوم ٣١ ديسمبر ١٩٩٩م، سوف تغني الأغاني نفسها، وبعد أن تنتهي منها ستذهب للبحث عن الطعام، كما فعلت في اليوم السابق. أما بالنسبة للبشر فسيكون الأمر مختلفًا، ربما شرعوا في بناء عالم أفضل، هذا إن لم تحدث الكارثة المتوقعة!

هل يفعلونها؟ ربما ... ولكن، ربما لا يفعلون! وهذا وارد أيضًا. الدلائل والمؤشرات التي رأيتها حتى الآن كانت مختلفة وغير متوائمة. أحيانًا أرى الإنسان مجرد قرد كبير

تحت رحمة غرائزه، إنه — لسوء الحظ — يستطيع أن يستخدم الآلات القوية شديدة التعقيد. أحيانًا أخرى يكون لديَّ انطباع أن الأسوأ قد انتهى، وأن الجانب الأكثر نبلًا — في طبيعته — قد بدأ في الظهور. فأي الافتراضين هو الصحيح؟ أتساءل ولا أعرف، ربما ليس أيهما. وربما يحدث أن تعاقب السماءُ الإنسان، في أول ليلة من عام ألفين، على حماقاته، وعلى أسلوبه الغبي في تبديد مصادر الأرض بصب أمطار النار والكبريت عليها.

في عام ألفين ستكونين في الرابعة والعشرين فقط، وستشهدين كل ما يحدث، وسأكون أنا قد رحلت، آخذة معي، إلى القبر، فضولي الذي لم يشبع، وظمئي الذي لم يُرو.

هل ستكونين مستعدة؟ هل ستكونين قادرة على التعامل مع الحقبة الجديدة؟ لو هبطت من السماء جنية في هذه اللحظة، وطلبت مني أن أبدي رغبة لكي تحققها لي ... هل تعرفين ماذا ستكون؟ سأطلب منها أن تحولني إلى فأر ... أو عصفور ... أو عنكبوت ... أو أي شيء صغير جدًّا لكي أعيش جوارك ... ولكن دون أن يراني أحد.

لا أعرف ماذا يحمل لك مستقبلك، ولا أستطيع أن أتخيله إن حاولت. ولأنني أحبك، يحزنني أنني لا أعرف. في المرات القليلة التي تكلمنا فيها عنه، كنت لا ترينه ورديًّا. ومع قناعات المراهقة، كنت واثقة من أن التعاسة التي كانت تضطهدك آنذاك، سوف تظل تضطهدك إلى الأبد. أما أنا فمقتنعة بالعكس تمامًا. ستسألين لماذا، ما هي المؤشرات التي تجعلني أحمل تلك الفكرة المجنونة؟ إنه «باك» يا حبيبتي! لا شيء أكثر، ولا أقل من «باك»، لأنك عندما اخترته من المحل الذي اشتريناه منه، كنت تعتقدين أنك اخترت كلبًا من بين الكلاب ... مجرد كلب! ولكنك خلال تلك الأيام الثلاثة كنت تحاربين معركة أكبر ... أكثر أهمية، بين ما يمليه عليك الغرور، وما يمليه عليك القلب ... وأنت بلا أدنى شك، ودون تردد، اخترتِ أن تتبعي قلبك.

أما أنا، عندما كنت في مثل عمرك، حينذاك، كان يمكن أن أختار كلبًا ذا شعر حريري، كلبًا تبدو عليه الأرستقراطية، وتفوح منه أطيب رائحة، كلبًا يدير الرءوس عندما أصحبه في تمشية. إحساسي بعدم الأمان، بالإضافة إلى أسلوب تربيتي؛ جعلاني ضحية لاستبداد المظاهر.

٢١ ديسمبر

بعد كل ذلك البحث والتنقيب في غرفة السطح، أحضرت — أخيرًا — «المذود» وقالب الكعك، الذي كنا قد أنقذناه من الحريق.

أفهم أنك ستقولين: «المذود» لأن الكريسماس على الأبواب، ولكن لماذا قالب الكعك؟ قالب الكعك هذا كان لجدتي، جدتك الكبيرة، وهو الشيء الوحيد المتبقي من تاريخ عائلتنا من جهة الأم. بعد وجوده، لفترة طويلة في غرفة السطح، غطَّاه الصدأ، ولذا حملته مباشرة إلى المطبخ، ووضعته في الحوض، وحاولت تنظيفه ببعض السوائل ومواد التنظيف. فكري ... كم مرة دخل وخرج من الفرن! وفي أنواع الأفران التي دخلها، وكان كل منها أحدث من السابق، وكم عدد الأيادي المختلفة، رغم أن كلها أيادٍ، التي قد ملأته بالعجين.

أحضرته من غرفة السطح إلى أسفل ... إلى المنزل، لكي أحييه مرة أخرى، لكي تستخدميه ... وربما تورِّثينه لبناتك، لأنه، على طريقته المفيدة، يلخص قصة الأجيال.

بمجرد أن وقعت عليه عيني في قاع الحقيبة، تذكرت آخر مناسبة عندما كنا سعداء برفقة كلينا، متى كان ذلك؟ منذ عام ... وربما أكثر.

بعد الغداء مباشرة، جئت أنتِ إلى غرفتي دون أن تطرقي الباب، ووجدتني مستلقية على السرير، ويداي مشبوكتان على صدري، وبمجرد رؤيتي انفجرتِ في موجة من البكاء، أيقظني نحيبك. جلستُ وأنا أتساءل: «ما بك؟ ماذا حدث؟»، قلتِ: «لأنك ستموتين قريبًا» ... وبكيتِ أكثر. قلتُ: «ليس قريبًا جدًّا يا حبيبتي ... أتمنى!»، وضحكتُ، وقلتُ لك بعد ذلك: «هل تعرفين ماذا سنفعل؟ سأريك كيفية صنع شيء أستطيعه، وأنت لا تستطيعين، حتى يمكنك عمله عندما لا أكون موجودة؛ وتتذكرينني». وقُمتِ وطوقتِ رقبتي بذراعيكِ. ثم قلت أيضًا لكي أفرغ الشحنة العاطفية التي في داخلي: «هيا! ماذا سأعلمك؟» جففت دموعك، وقلت: «نصنع كعكة!»، فذهبنا إلى المطبخ، وبدأنا معركة طويلة. في البداية رفضت

ارتداء مريلة المطبخ، وقلتِ: «إذا لبست هذا الشيء، فلا بد أن ألفَّ شعري بشيء، وأضع في قدمي شبشبًا من القماش!»، وعندما جاء وقت خفق بياض البيض شكوتِ من ألم في رسغك، وغضبت لأن الزبد لم يختلط بصفار البيض، ولأن الفرن لم يكن ساخنًا بدرجة كافية. وعندما كنت ألحس الملعقة الخشبية بعد ضرب الشوكولاتة، تركت الشوكولاتة أثرًا على أنفي، وعندما رأيت ذلك انفجرتِ ضاحكة: «في مثل عمرك ... أليس ذلك أمرًا مضحكًا؟ أنفك بني مثل أنف الكلب.»

لكي نصنع كعكة واحدة أمضينا المساء كله، وانتهى الأمر بالمطبخ وكأنه كان تحت القصف بالقنابل. كان بيننا جو من الأنس والوداعة، ومرح ناشئ عن تواطؤ. وبعد أن أصبحت الكعكة في الفرن، وأنت تشاهدينها، ولونها يغمق — شيئًا فشيئًا — خلف الغطاء الزجاجي، تذكرتِ فجأة لماذا صنعناها، وانفجرتِ في البكاء ثانية.

في المطبخ حاولت تهدئتك: «لا تبكي، أنا سأموت بالطبع قبلك، ورغم أنني لن أكون موجودة، إلا أنني سأكون هنا ... سأعيش في ذكرياتك السعيدة. ستنظرين إلى الأشجار، إلى أحواض الخضراوات والزهور، وتتذكرين كل الأوقات الجميلة التي قضيناها معًا. سيحدث ذلك أيضًا عندما تجلسين في مقعدي، أو تخبزين الكعكة التي علَّمتك صُنعها اليوم، وسوف تجدينني أمامك بأنف بُنيٍّ عليه آثار الشوكولاتة.»

٢٢ ديسمبر

هذا الصباح بعد الإفطار، ذهبت إلى غرفة الجلوس، وبدأت أضع المذود في مكانه المعهود بجوار المدفأة. فردت الورق الأخضر أولًا، ثم رتبت الطحالب الجافة، سعف النخيل، الحظيرة، وبها يوسف و«ماري»، الثور والحمار، وحول ذلك جماعات الرعاة، فتيات الإوز، العازفون، الخنازير، الصيادون، الديكة والدجاج، الخراف والماعز.

وفوقها ثبت — بشريط لاصق — الورق الأزرق الداكن، السماء، ثم ذهبت إلى الركن الآخر من الغرفة بنجمة بيت لحم في الجيب الأيمن من رداء النوم، و«المجوس» في الأيسر، وعلقت النجمة على الطاولة الجانبية، ورتبت تحتها الملوك والجمال في طابور واحد.

هل تتذكرين؟ عندما كنت صغيرة، وبمنطق الأطفال الصغار الجامد، كنت ترفضين أن تتركيني أضع النجمة والملوك الثلاثة بالقرب من المذود في البداية.

كان لا بد أن يبدءوا من أبعد مسافة ممكنة، وأن يتقدموا قليلًا بعد فترة، النجمة فوقهم بقليلٍ، وخلفها الملوك الثلاثة. وبالطريقة نفسها، لم تتحمَّلي رؤية يسوع الطفل في المذود قبل الموعد، لذا جعلناه يطير من السماء إلى المذود في منتصف الليل، في الوقت المناسب تمامًا. وبينما أنا أضع الخراف على الحصيرة الخضراء، تذكرت شيئًا آخر كنت تحبين فعله بالمذود، لعبة اخترعتِها ولم تملِّي ممارستها. لا بد أن يكون عيد القيامة هو الذي أوحى لك بالفكرة، لأنه كان من عادتي أن أخفي البيض الملون في الحديقة. في الكريسماس، بدل البيض كنت تخبئين الخراف، تأخذين واحدًا من القطيع، دون أن أراكِ، وتخبئينه في مكان غير متوقع، ثم تجيئين إليَّ، وتبدئين الثغاء بصوت ضعيف مسكين؛ ويبدأ البحث.

أترك أي شيء أكون مشغولة به، وأنت تضحكين وتثغين ورائي، ندور في البيت وننادي: «أين أنت أيها الحمل الصغير المفقود؟ ساعدني أن أجدك لكي أحملك إلى بر الأمان!»

والآن ... أين أنت أيها الحمل الصغير؟ أنت هناك مع الذئاب والصبار، وأنا أكتب. عندما تقرأ ذلك من المحتمل جدًّا أن تكون هنا، وتكون أشيائي في غرفة السطح.

هل ستكون كلماتي قد حملتك إلى بر الأمان؟ لست من الجرأة لكي أعتقد ذلك، ربما تكون قد أزعجتك، وأكدت الرأي السيئ عني لديك قبل أن ترحلي. ربما تكونين قادرة فقط على الفهم عندما تكبرين، إذا قمت بتلك الرحلة الغامضة التي تقودك من العناد والتصلب إلى الرحمة والحنان.

لاحظي أرجوك أنني أقول «الحنان» وليس «الشفقة». إن أنتِ شعرت بالشفقة من أجلي فسأعود روحًا صغيرة شريرة لإغاظتك بلا رحمة. سأفعل الشيء نفسه إذا كنتِ وضيعة بدل أن تكوني متواضعة، أو إذا أضعتِ وقتك في لغو فارغ عندما يكون الصمت مطلوبًا.

ستنفجر لمبات الكهرباء، والأطباق تطير من فوق الأرفف، ولن أتركك في سلام، من مطلع الفجر حتى ساعة متأخرة من الليل.

لا! ليس صحيحًا. لن أفعل شيئًا. إذا كنت ما زلت في مكان ما، وإن كان بالإمكان أن أراك، فسوف أشعر بالحزن فقط. كما يحدث لي في كل مرة أرى فيها حياة تتبدد، حياة انسدَّ فيها طريق الحب ... اهتمي بنفسك.

في كل مرة ترين خطأ تريدين تصحيحه، تذكري أن الثورة الأولى — والأهم — لا بد أن تحدث داخلك. أن تحاربي من أجل فكرة، دون أن يكون لديك فكرة واضحة عن نفسك، هو من أخطر الأشياء التي يمكن أن تفعليها.

في كل مرة تشعرين فيها بأنك ضائعة أو مرتبكة، فكري في الأشجار وكيف تنمو. تذكري أن شجرة برأس كبير كثيرة الأوراق وجذورها قصيرة سوف تقع عند أول هبة ريح، وأن النسغ لا يمكن أن ينساب بحرية في الشجرة ذات الجذور الكثيفة والرأس الصغيرة. الجذور والرأس لا بد أن تنمو بنسبٍ متلائمة، عليك أن تكوني جزءًا من الأشياء وفوقها. هكذا فقط يمكنك أن تمنحي الظل والمأوى، هكذا فقط يمكنك أن تمنحي الزهور والفاكهة في الموسم المناسب.

وعندما تصلين إلى مفترق عدة طرق، ولا تعرفين أيها تختارين، لا تختاري عشوائيًّا ... انتظري وفكري ... تنفَّسي على النحو الواثق العميق الذي تنفست به عندما جئت إلى الدنيا، لا تجعلي شيئًا يشتت ذهنك. انتظري ... وواصلي الانتظار، اسكني وأنصتي لقلبك في صمت ... وعندما يكلمك انهضي، واتَّبعيه!

هنـــداوي